◻ الفصل الأول ◻

التطور التاريخى لمنطقة السودان الغربى

1 - تحديد المنطقة جغرافياً.

2 - تضاريسها.

3 - الممالك التي قامت بها:

أ - غانا

ب - مالي

تحديد منطقة السودان الغربي :

كان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام، التي تقطن جنوبي الصحراء الكبرى، إلا أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ أحياناً على كل السود الإفريقيين، الذين يسكنون في بعض المواقع، كما يتضح من الرسالة التي كتبها الجاحظ، وسماها «كتاب فخر السودان على البيضان»، أنهم يقصرون لفظ السودان على ذلك الجزء الواقع في غرب أفريقيا[1].

وذكر ابن عبد الحكم السودان عندما أشار إلى السوس، جنوب المغرب، بقوله: «وغزا عبيد الله الفهري السوس وأرض السودان»[2].

وقد أطلق البكري كلمة السودان في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي على ذلك الجزء من غرب أفريقيا، الذي يمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى مشارف النوبة على النيل شرقاً، واعتبر مدينة سجلماسة مدخلاً إلى بلاد السودان[3].

وحدد بعض المؤرخين السودان، بالمنطقة التي تمتد من البحر المحيط إلى الواحات وتفصلها عن بلاد المغرب مغاور[4].

---

(1) عمر بن بحر الجاحظ، كتاب فخر السودان على البيضان، رسائل الجاحظ، القاهرة :1906م ص 64

(2) ابن عبد الحكم، فتوح البلدان والأندلس، نشر النص العربي والترجمة الفرنسية، البرت جانو 1948 ص 122 .

(3) أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليؤفن، وأندري فيري، تونس : الدار العربية للكتاب 1992 م، ج2، ص 837.

(4) - محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف، ورقة 20.

وذكر القلقشندي أن بلاد السودان يحدها من الغرب البحر المحيط، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم[1] مما يقابل بلاد اليمن، ومن الشمال براري تمتد ما بين مصر، وبرقة، وبلاد عرب مغاربة من جنوبي المغرب إلى «البحر المحيط»[2] .

أما ابن حوقل فقد حدد منطقة السودان بقوله : «وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان، فإن بلدهم في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد ملتف . . . غير أن له [حداً][3] ينتهي إلى البحر المحيط، وحد له ينتهي إلى برية، بينه وبين أرض المغرب وحداً له إلى برية بينه وبين أرض مصر، على ظهر الواحات»[4] .

أما ابن خلدون فيقول : «والسودان أصناف شعوب وقبائل، أشهرهم بالمشرق الزنج والنوبة، يليهم الزغاوة، ويليهم، الكانم، ويليهم من غربهم كوكو وبعدهم التكرور ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية»[5] .

وأورد عثمان بن فودي عن طول أرض السودان ـ نقلاً عن القسطلاني في شرح البخاري ـ على أن عبد البرقي، في كتاب القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم قال : « إن مقدار المعمور من الأرض، مائة وعشرون سنة تسعون ليأجوج ومأجوج، و[اثنتا عشرة][6] للسودان، وثمانية للروم،

---

(1) - يقصد به البحر الأحمر .

(2) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة : المؤسسة الوطنية للتأليف والنشر 1963 م، ج 5، ص275 .

(3) - وردت في النص «حدُ» ثلاث مرات والصحيح «حداً» .

(4) - ابو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، بيروت : دار مكتبة الحياة، 1979م ص 24 .

(5) - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر 1979 م، ج5 ص234 .

(6) - وردت في النص واثنتا «عشر» والصحيح «عشرة» .

و[ثلاثة][1] للمغرب و[سبعة][2] لسائر الأمم»[3].

وبعد استقراء أقوال المؤرخين العرب ووقوف الباحث على جلها، نستطيع أن نصل إلى تحديد قريب، من الواقع، وهو أن المنطقة تطل غرباً وجنوباً على المحيط الأطلسي، وتحدها الصحراء الكبرى شمالاً، ومن الشرق تتاخم بحيرة تشاد[4]، وباختصار تشمل المنطقة ما يعرف اليوم بحوض السنغال وغمبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط[5].

تضاريسها :

منطقة السودان الغربي التي نحن بصدد الحديث عنها، تتخللها هضاب، وجبال، منها سلسلة الجبال عبر طريق سيقو جاو، وحجار، وأهير (ايراسبن) وجبال اورار الشرقية والغربية.

وترتفع بعض أماكن الصحراء، إلى ستة الآف قدم، فوق سطح البحر، وتنخفض أخرى إلى مائة قدم تحت سطح البحر ؛ تنتشر فيها كثبان الرمال، والواحات الكبيرة ؛ كما توجد بها الهضاب الصخرية، والمسالك الفسيحة، وسلاسل الجبال المتقطعة، وكذلك الوديان ؛ وتقدر مساحة جزء الصحراء التي تسيطر عليه الرمال بحوالي التسع[6].

---

(1) وردت في النص «وثلاثة» والصحيح «ثلاث» .

(2) وردت في النص «وسبعة» والصحيح سبع .

(3) عثمان بن فودي، تنبيه الإخوان على أحوال بلاد السودان، مخطوط مركز أبحاث النيجر، رقم 110 ورقة 4 .

(4) محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان مخطوط ورقة 32 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم، كوناكري1969 ص 14.

(5) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، دون تاريخ، ص ص16-15، والشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، دار المجمع العلمي 1979 ص 41 انظر الملحق .

(6) أبو عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، المعروف بالشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، ج 1ص 108

وقد أفاد الإدريسى بأن الأمطار قليلة، من صحراء نيسر، والتي يدخل عليها المسافرون إلى مدينة اودغست، وغانة، وهي صحراء قليلة البشر، والماء بها قليل، وشمسها قاتلة[1].

والجدير بالملاحظة أنه كلما بعدت المسافة عن الصحراء، زاد هطول الأمطار، وبذلك تزداد خصوبة التربة.

يجري في منطقة السودان الغربي نهران: نهر النيجر، والسنغال، وهما يجريان بمحاذاة حافة الصحراء الجنوبية[2].

❁ ❁ ❁

(1) - الإدريسي، المصدر السابق ج 1ص 107 وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة 1964 م ص9 .

(2) - عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق، ص 7.

الممالك التي تعاقبت على المنطقة

أولاً : إمبراطورية غانا الوثنية :

لقد تعاقبت على منطقة السودان الغربي إمبراطوريات وممالك، لعبت دوراً في ازدهارها شملت إمبراطورية غانا الوثنية، أولى حلقات التاريخ القومي لغرب أفريقيا، فهي أول إمبراطورية، قامت بالسودان الغربي، ولعلها أول تجربة أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد. وقد دل ازدهارها على بقائها، إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وعلى قدرة الأفريقيين في تدبير شؤونهم بأنفسهم، وهذا ماحدا ببعض الكتاب الغربيين المنصفين إلى أن يقرروا بأن حضارة هذه البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض، بل فاقت حضارة بعض البلاد الأوربية.

وقد بلغت ذروة مجدها وعظمتها في الفترة ما بين القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس الهجري التاسع/ الحادي عشر الميلادي؛ وعندما اتسعت رقعتها امتدت من نهر النيجر إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً وشمالاً عند حافة الصحراء الكبرى، وقد أورد الإدريسي عن أرض غانا بأنها تتصل من جهة الغرب ببلاد مفزارة، ومن الشرق ببلاد ونقارة، ومن الشمال بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض العرب المغاربة، ومن الجنوب بأرض الكفر من اليميم[1]، ويقصد بهم أكلة لحوم البشر.

كما أورد القلقشندي قوله: «إن بلاد غانة تقع غربي بلاد صوصو وتجاور البحر المحيط الغربي وقاعدته ـ أي قاعدة هذا الإقليم ـ مدينة غانا وهي حمل

(1) الإدريسي، المصدر السابق ج 1 ص 24 .

سلطان غانا»[1] وأورد المسعودي بهذا الخصوص «وتحت يد ملك غانه عدة ملوك وممالك»[2] وذكر صاحب الاستبصار «بأن لملك غانة مملكة واسعة نحو الشهرين في مثلها»[3].

وقد عرفت غانا بهذا الاسم بالنسبة إلى عاصمتها، مدينة غانا GHANA[4] وذكرها البكري بقوله : «وغانة سمة لملوكهم واسم بلد أوكار»[5] أما ياقوت الحموي فقال: «وغانة كلمة أعجمية، لاأعرف لها مشاركاً من العربية وهي مدينة كبيرة، في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان»[6].

ومن وجهة نظرى، فإن تسمية غانا أطلقها المؤسسون الأوائل لهذه الإمبراطورية، وهم المهاجرون من البرقاويين الليبيين، والتجار الواردين على المنطقة من الشمال الإفريقي، نظراً لأنها كانت غنية بالذهب.

أما عن أصول سكانها، فالروايات تختلف من راوٍ إلى آخر، وفي بعض الأحيان يتفق أكثر من راو، على رواية واحدة، حول أصول غانا، بأنهم يسمون أنفسهم (التورد) أو (التوروث)، وأن مقدمهم من وادي دجلة والفرات، أي أن لهم أصولاً أشورية، وبابلية قديمة[7].

(1) القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 284، وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، المرجع السابق، ص 71.

(2) ابو الحسن علي بن الحسن المسعودي : (ت 956 م) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان - مخطوط في مجلد 879 بالهيئة العامة للكتاب القاهرة، ورقة 39 .

(3) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، الدار البيضاء : دار النشر المغربية 1985م ص 221 .

(4) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، دمشق : مطبعة يوسف، دون تاريخ ص 16 .

(5) - البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 871.

(6) شهاب الدين أبوعبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت : دار صادر 1979 م، ج 3 ص 770 .

(7) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، رقم 1000، ورقة 2 .

أما محمد محمد المفتى. . فقد أورد أن أغلب سكان غانا، في العصور الوسطى من قبائل السوننك، وهم فروع الماند الأساسية، أي مجموعة القبائل المتكلمة بلغة الماند، وتختص مجموعة السوننك عن بقية الفروع الأخرى للماند، بصفات جسمانية، وتقاليد، وأعراف اجتماعية معينة[1].

وكان موطن السوننك على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يعرف بالساحل، وقد حدث امتزاج بينهم وبين البربر، والفلانيين. ونتيجة لهذا الامتزاج والاختلاط، حدث تغير في ألوانهم حتى أن الولوف يطلقون على السوننك اسم تشيركول أو سيراكول، وتعني في لغتهم الرجال الحمر أو الناس الحمر[2].

أول حكومة للإمبراطورية :

يمكن أن نقسم مرحلة الحكم في غانا إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : حكم البيضان.

المرحلة الثانية : حكم السوننك.

حكم البيضان :

أورد عدد من المؤرخين، أن أول حكومة حكمت غانا من البيض، كانت من مهاجرين من الشمال الأفريقي، وبالتحديد، من برقة بليبيا، ترجع إلى حوالي القرن الأول الميلادي، ثم استقرت في منطقة أوكار، وسط مجموعة من قبائل الزنوج، تتكلم لغة الماندي، وأغلب هذه المجموعة من السوننك، ثم

---

(1) - محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط ورقة 32 وإبراهيم علي طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970م ص 18 ودونالد وايدنر، تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي عطا الله الجمل، القاهرة : مؤسسة سجل العرب 1976م، ج1، ص 32 - 40 .

(2) - محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط ورقة 32 - 33 .

صارت ذات قــوة، خلال القرن الرابع الميلادي[1].

وذكر صاحب الجواهر الحسان : « أما مالي فإقليم كبير واسع جداً في المغرب، وقيمع هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض باغب، قيل إن سلطاتهـم، كانـت قبل البعثـة فتملـك حينئـذ اثنـان وعشـرون ملكاً، وهم بيضان في الأصل، ولكن لانعلم من ينتمي إليه في الأصل، وعندما انتهت مدتهم، وانقرضت دولتهم، خلفهم في السلطنة أهـل مــالي»[2].

أما السعدي، فله رأي في ذلك؛ إذ يقول: «وهم بيضان في الأصل» غير أن الشك يدور حول أصولهم الغامضة، هل هم من اليهود أم من العرب المغاربة؟.

مع أن عبد الرحمن السعدى يرجح أن أصولهم من العرب المغاربة في قوله :«ولانعلم أصلهم، والراجح أنهم من العرب المغاربة الذين اختلطوا بالزنوج وصلة العرب المغاربة بقبائل السودان قديمة، ثم أن أهل غانا أنفسهم يقولون إن أسرة عربية مغربية كانت تحكم بلادهم منذ زمن بعيد».

كما أورد كذلك أن اول سلطان لها هو قيمع ومكان إمارته غانا، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن، قيل إن حكمهم كان قبل البعثة النبوية، وهم بيضان في الأصل، ولانعلم أصلهم وخدامهم عكريون[3].

---

(1) - وفيق حسين الخشاب وإبراهيم عبد الجبار المشهداني، افريقيا جنوب الصحراء، بغداد : 1978 ص 25 - 26.

(2) - أحمد بن بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 7 .

(3) - عبد الرحمن السعدى، تاريخ السودان، باريس: نشر هوداس وبنوه 1964م ص 9

Abdouulaziz Dialo, serie de conferences relatives aux relations entre le mali et le mond arabo islamique a partir du money àge. le centre cuturel isalamique

. Bamako - Mali premiere partie : Lempire Du Mali Septembre 1988 p : 5

اتسع نفوذ هذه الحكومة، حتى صارت تشمل المساحات، الممتدة بين أعالى نهر السنغال وأعالي نهر النيجر، وكانت هذه الإمبراطورية زراعية، إقطاعية، ولم يمنع ذلك الاستفادة من المعاملات التجارية، واستغلال الذهب.

وأورد كعت أنهم وعكري، وقيل (ونكرصوب) ثم لم يقطع بصحته، بل قال ضعيف هذا الاحتمال وهم (حم) في اصطلاح السودان لقبًا، والأصح أنهم ليسوا من السودان، وقيل من صنهاجة، وهو أقرب الاحتمالات.

وأطلق كعت على ملكهم كيمع، تعنى في لغة وعكري ملك الذهب كيهو الذهب، وهو من الملوك الأوائل، الذين حكموا غانا، وقد مات منهم عشرون ملكاً قبل ظهور الدعوة المحمدية، وتعرف مدينتهم باسم (قنب) وقد انتهت دولتهم من على مسرح الأحداث في القرن الأول من الهجرة النبوية. وكان آخر ملوكهم، كنسعي، وكان معاصراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وله بلد تدعى (كُرُنكع) وهو المكان الذي تسكن فيه أمه، وإلى زمن كعت مازالت عامرة[1].

ومن خلال ما ذهب إليه الأرواني والسعدي، حول تنسيب حكام غانا على أنهم من البيضان وأنهم من البربر، الذين هم العرب الأصليون لشمال أفريقيا، فإني أميل للرأي الذي يقول إن حكامها من البيضان، قدموا من الشمال الأفريقي، وبالتحديد من برقة بليبيا، لعدة أسباب، منها :

1 - أن الصحراء لم تكن في يوم من الأيام حاجزاً بين جنوب الصحراء وشمالها، بل إن الهجرات بين كل المناطق موغلة في القدم.

2- تسمية عاصمة غانا بكمبي صالح نستشف أن مؤسسها عربي فكمبي في لغة الزنج تعنى مدينة، وصالح اسم عربي، والمعنى العام مدينة صالح.

3 - أن العروبة أسبق من الإسلام إلى تلك المناطق وعندما وصل الإسلام إليها وجد أمامه أرضية جاهزة للعمل.

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس: نشر هوادس وبنوده 1964م، ص 41.

حكم السوننك :

مع نهاية القرن الثامن الميلادي، تمكنت أسرة من السوننك، وهي أسرة سيسي من طرد أسرة البيض الحاكمة، أو دولة كيمع، وكانت الأسرة الجديدة تتحكم في منطقة (وجادوا)[1].

يقول كعت عن نهاية حكم الأسرة الأولى «ثم أفنى الله ملكهم وسلط أراذلهم على كبرائهم من قومهم واستئصالهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم حتى يبقروا بطون نسائهم، ويخرجوا الجنين ويقتلهم[*][2].

كان الحكام الجدد، أقوى من أسلافهم البيض، فاستطاعوا ضم بعض الأماكن الهامة، منها أودغست الإسلامية 990م التي كان سكانها، من العرب المغاربة وجعلوها عاصمةً لهم، وفرضوا على القادمين إليها إتاوة، وضموا ولاته، وأبنار، وكوغة، والوكن، وسامه[3]، وقد وصفها البكري بقوله: «والبكم لهم حذق بالرماية، وهم يرمون بالسهام المسمومة، ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله»[4].

بلغت غانا، ذروة قوتها، واتساعها في القرن العاشر إلى أواخر القرن الحادى عشر الميلادي، وكانت ذات نفوذ واسع؛ حيث صارت تضم جميع المساحات الواقعة، بين النيجر والمحيط الأطلسي، وامتد نفوذها إلى الشمال وخضعت لها رقاب جل قبائل الصحراء الجنوبية، من الغرب إلى أعالي السنغال، وحدود مملكة التكارره، ومن الشرق إلى قرب تنبكت.

(1) امن بن بوغنو، مجموعة تواريخ، مخطوط مكتبة الحاج عبد القادر التبيني، بأقدز، دون تصنيف، ورقة 13.

Fage , Altals of African History , London , 1958 : P :86

(2) - محمود كعت، المصدر السابق ص 42 .

* ويقتلونه

(3) - ابن خلدون، المصدر السابق ج 2 ص 199 وإبراهيم طرخان إمبراطورية غانة، المرجع السابق ص 42 .

(4) - البكري، المصدر السابق، ج 2 ص 876 .

عاصمة غانا :

تقع مدينة كومبي صالح إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالي خمسمائة كلم[1] اتخذتها إمبراطورية غانا حاضرة لها، ويرجع تأسيسها إلى عهد حكومة البيض الأولى، ويقال إنها بنيت عام 300م وظلت تنمو تدريجيـاً[2]. وتحدث البكري قائلاً: "غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة، فيها اثنا عشر مسجداً، بها الأئمة والمؤذنون، والفقهاء والعلماء، وتحيط بها الآبار العذبة منها يشربون، وعليها يزرعون الخضروات".

أما مدينة الملك فتبعد عن الأولى ستة أميال، وتعرف بالغابة نظراً لما يحيط بها من أحراش، وفي هذه المدينة المباني المتصلة ببعضها، والمبنية بالأحجار وخشب السنط. أما الملك فله قصر خاص به، وبمدينته مسجد على مقربة من القصر، يصلي فيه من يفد من المسلمين، وحولها قباب وغابات يسكن فيها، الذين يمارسون مهنة السحر، وهم الذين يقومون، بأمر الدين، وفيها دكاكيرهم، أي معبوداتهم، وقبور ملوكهم، وبالمدينة حرس خاص، لايسمح لأحد بدخولها إلا بإذن الملك، وبها سجون وإذا ما سجن أحد فيها، انتهت أخباره[3].

---

(1) - لقد وقفت على آثار كومبي صالح عام 1985 برفقة الدكتور محمود الزبير مدير مركز أحمد بابا .

(2) - Thomossey (Paul) et R- Mauny (Raymand) : Compagne de Fouilles a` Koumbi salah ; Bull de l`institue francaised` Afrique Noire, AXIII 195 No2 P :438 - 468

المسعودي، أخبار الزمان، مخطوط مجلد 879 ورقة 39.

(3) - البكري المصدر السابق ج 2 ص 872 وعصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا 1038 - 1121م، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1988 ص 111 وامين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب العربي والأندلس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب 1984 ص 306 وفيج جي دي، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر مراجعة بهجت رياض طليب، القاهرة: دار المعارف، 1982 ص 23 .

وقد بدأت الحفريات، في البحث عن آثار كومبي صالح، منذ عام 1907 م على يد العالم الفرنسي دبلاج L. Desplagues، الذي عثر على أطلال مدينة كانت مزدهرة، وتوصل إلى أن هذه هي أطلال حاضرة غانا، وأنها كانت تقع على جانبي بحيرة صغيرة ؛ وحدد مكانها على بعد حوالي مائتي ميل، غربي مدينة جنى، ونحو 40 ميلاً، شمال شرق مدينة كوليكور، الواقعة شمال باماكو. وتوالت الحفريات، ففي عام 1914 قام حاكم فرنسي لإحدى المقاطعات، يدعى (بونى ميزير B. Mezeres) بعملية حفر في منطقة مشهورة بالساحل. وتجددت الحفريات في عام 1939-1940-1950، حيث قام الفرنسيان توماسي ومونى Thomassy and Mouny بإجراء حفريات في المواقع، وأوضح الباحثان أن الآثار التي عثر عليها، تكشف النقاب عن الحاضرة الإسلامية المزدهرة لغانا. تشغل هذه المدينة نحو ميل مربع، وسكانها لايقلون عن 30 ألف نسمة، وقد عثر على أسلحة من الحديد، ومسامير في غاية الدقة، وموازين مختلفة الأحجام لوزن الذهب، وصفائح نحاسية، وحديد مزخرف، بآيات قرآنية، ومقص، ومطارق حديدية، وخشبية. كما عثر على عدد من المنازل والمساجد، ومن بينها كشف توماسي ومونى مبنيين كبيرين، طول الأول نحو 66 قدمًا، وعرضه نحو 42 قدماً، يحتوي على سبع غرف، تفتح على بعضها البعض وهذا المبنى يتكون من طابقين بينهما سلم، أما المبنى الثاني فهو أكبر من الأول، ويضم تسع غرف، ولاتزال جدرانه الداخلية تحمل آثار الطلاء الأصفر[1].

يدل العرض السابق على مكانة الإسلام والمسلمين في تلك الديار، وعلى أن جزءاً كبيراً من رعايا غانا كانوا يدينون بالإسلام، وأن حرية الأديان مكفولة، ولايستبعد أن الملك الغاني في تلك الفترة، كان يدين بالإسلام إلا أنه لايستطيع

---

(1) - Thomassy et. R. Mouny op cit, P : 438 - 468

ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ص ص 67 - 68 وإبراهيم طرخان، إمبراطورية غانا، المرجع السابق، ص 36 .

التصريح به، والذي يترجم ذلك وجود مسجد في مدينة الملك، وبالقرب من مقر حكمه، الشيء الذي يدل على أن الملك كان يتردد عليه، وإلا لكان المسجد في طرف من أطراف المدينة.

ويبدو أن المسلمين كانوا مستقرين في مدينتهم الغانية، الأمر الذي جعلهم يزرعون الخضروات التي يحتاجون إليها، ولهم معرفة بأمورها. كما أن مباني المدينة المبنية بالحجر، وخشب السنط، ونظام الطوابق والأدوات المختلفة، التي كشف عنها التنقيب، دليل على التقدم الحضارى الراقي في تلك الفترة، وعلى الثراء والاستقرار اللذين كانت عليهما هذه الإمبراطورية، التي عانقت المجد لفترة طويلة من الزمن وسبقت غريماتها في المنطقة.

غير أن مدينة كومبي صالح، لم تكن هي الوحيدة التي تمثل عمق واستراتيجية إمبراطورية غانا الوثنية، بل كانت هناك مدينة أودغست، التي تعتبر أيضًا حاضرة من حواضر الإمبراطورية، ومدينة من مدن الإسلام في تلك الديار[1].

مدينة أودغست إحدى حواضر غانا :

مدينة أودغست مدينة من مدن الإمبراطورية، ذكر الإدريسي بأن المسافة بينها وبين بريسى اثنتا عشر مرحلة[2]. وذكر البكري بأنها تقع بين الزنوج وسجلماسة على بعد إحدى وخمسين مرحلة من غانا، وتبعد أودغست عن القيروان بمائة وعشرين مرحلة[3].

ووصفها ابن حوقل بقوله : "أودغست مدينة لطيفة، أشبه بلاد الله بمكة، بين جبلين ذات شعاب"[4]، وذكر حسن إبراهيم حسن أنها على بعد مائتي ميل

---

(1) - مجهول، رسالة، في فضل التقوى ومضرة الفجور، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 27 ب ورقة 8، وعبد الرحمن عمر الماحي الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، ط:5، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1989، ص 89 .

(2) - الادريسي المصدر السابق ج 1 ص 20 .

(3) - البكري المصدر السابق ج 2، ص 851 .

(4) - ابن حوقل المصدر السابق، ص 91 .

من كومبي صالح، وأنها تقع بين خطي عرض 18-19 شمال خط الاستواء وجنوب غرب تاجكه"[1].

أما عن التركيبة السكانية للمدينة.. فإنها خليط من العرب المغاربة والعرب المسلمين وقبائل السوننكى، وقبائل جداله ومسوفه، ولمتونة إحدى قبائل صنهاجة[2] التي تتمتع بحق السلطة.

وقد شهدت المدينة نهضة اقتصادية، عبر عنها البكري، حين ذكر بأن بالمدينة أرباب نعم كثيرة، وأموالاً جليلة، وسوقها يؤمه التجار بكثرة حتى أن الرجل لايسمع فيها جليسه، ويتبايعون بالتبر، وليس لديهم فضة[3].

وقد عرفت المدينة، حركة تجارية نشيطة، ساعد في تكوينها تجار من الشمال الإفريقي من سجلماسة، ودرعة، وغدامس فجلبوا إليها القمح والتمر، والزبيب، ووصل سعر قنطار القمح، عندهم في أغلب الأوقات ستة مثاقيل، وكذلك التمر والزبيب ويتجهز لها بالنحاس المصنوع، وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة، ويجلب منها العنبر لقربها من المحيط الأطلسي، والذهب والإبريز الخالص خيوطاً مفتولة. وذهب أودغست من أجود الذهب[4]. ومن التجار الذين ارتادوا اودغست من ليبيا، أبو رستم النفوس من جبل نفوس[5].

(1) - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ط: 3 القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 1984، ص215، والهادي المبروك الدالي، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، من منشورات مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، بيروت، دار المحيط، 1991، ص 54 .

(2) - الحموي المصدر السابق، ج1 ص227، عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر، تقويم البلدان باريس : دار الطباعة السلطانية 1850 ص 37 .

(3) - البكري، المصدر السابق، ج2 ص ص 848-849 .

Sehene mody cisoko et D. Dion: (Historie de l'Sfrique), Paris: Pressence Africaine 1973 P: 47.

(4) - البكري المصدر السابق ج 2، ص ص 848-849 .

(5) - مقرين بن محمد البغطوري، سيرة أهل نفوسة، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة 56، والبكري، المصدر السابق، ج 2 ص ص 848-849 .

كما كانت البلد تتمتع بثروة حيوانية متمثلة في الغنم؛ حيث تشترى عشرة أكباش بمثقال، كما يوجد عندهم البقر والإبل، وحيوان يعمل منه الدرق يعرف باللمط[1].

نظام الحكم في الإمبراطورية:

كان نظام الحكم السائد في غانا نظاما ملكياً استبدادياً، شأنه شأن جميع النظم القائمة في باقي ممالك السودان الغربي والأوسط، سواء أكانت في عهدها الوثني أم في عهدها الإسلامي.

والنظام المتبع في وراثة عرش الإمبراطورية الغانية، هو توريث ابن الأخت، ويورد البكري شيئا عن ذلك حين يقول :« وسنتهم أن الملك لايكون إلا في ابن الأخت، لأنه لايشك فيه، أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه، ولايقطع على صحة اتصاله به»[2]. ويقول في مكان آخر «ولايلبس المخيط من أهل دين الملك غيره، وغير ولي عهده وهو ابن أخته»[3].

والملك تنكامين الذي تقلد أمر البلاد، حوالي عام 455هـ/ 1063م، كان قد ورث الملك عن خاله بسي Beci[4]، ويعلل البكري هذه الظاهرة، بأن المولود ابن أمه، وهذا أمر صحيح. لكن من المعروف أيضًا أن لهذه الظاهرة جذورها في التقاليد الوثنية القديمة، وهي التي ترفع من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية - كذلك عرفت هذه الظاهرة عند قبائل الطوارق، وصلة هؤلاء ببلاد السودان ترجع إلى أزمنة موغلة في القدم[5]. وعندما وصل الإسلام إلى غانا، أضعف من هذه الظاهرة، ولكنه لم يقض عليها قضاءً كاملاً في جميع المقاطعات

---

(1) البكري، المصدر السابق ج 2،ص ص 484- 489 .

(2) نفسه والصفحة .

(3) نفسه ج 2 ص 872 والاستبصار المصدر السابق ص 220 .

(4) موسى بن أحمد السعدي، زهور البساتين في تاريخ السوادين، مخطوط مكتبة الباحث دون تصنيف ورقة 142، والبكري المصدر السابق، ج 2، ص 872 .

(5) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص ص 20 - 22 .

بالسودان الغربي، وقد شهد ذلك ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، في مدينة تكده، فلم ترقه هذه الظاهرة؛ مما حدا به إلى التعليق عليها بقوله : « وذلك أسوأ مارأيته في الدنيا، إلا عند الكفار الملبار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون»[1].

ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، أي فترة تغلغل الإسلام، اختفت ظاهرة توريث العرش لابن الأخت، وصار الملوك يورثون الحكم لأبنائهم الذكور، ولم تتأثر مكانة المرأة الرفيعة في المجتمع السوداني الغربي، بالإسلام، وإنما نظمت، وظلت منزلتها كما هي، بدليل انتساب أعظم سلاطين مالي إلى أمهاتهم مثل كنكه موسى، والذي نسب إلى أمه (نانا كانجو)، وسيرد الحديث عنه فيما بعد.

التقسيم الإداري :

قسمت الإمبراطورية إلى ولايات أو ممالك، وكان لكل ولاية أو مملكة حاكم يسير أمورها، ومن أشهر الولايات أودغست وأوكار، وهي نواة إمبراطورية غانا، إضافة إلى (هوذ) في الوسط وممالك عرب المغاربة في الشمال، وديارا وتاكانت Taghant، وباسيكورو في الشرق ووأجادو، وكانياجا، وبغن Baghana في الجنوب، والجنوب الشرقي.

كان نظام الحكم يقوم على أساس المركزية، إلا في بعض المقاطعات؛ حيث ظل الحكم فيها وراثيًّا في أسر معينة، حتى إذا ما أحست هذه المقاطعات الوراثية الخاضعة للحكم المركزي، في كومبى صالح، بضعف الحكومة المركزية، قامت بمحاولة الانفصال رغبة في الاستقلال، كما حدث عند دخول المرابطين

---

(1) ابو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت دار صادر، دون تاريخ، ص 698 .

والجدير بالملاحظة بأن استاذنا الكبير الدكتور عبد الهادي التازي، قام بتحقيق رحلة بن بطوطة بإضافات جديدة، لم تكن معروفة من قبل .

كومبي صالح عام 469 هـ/ 1076م، عندما وجدت كل من ديارا، وكانياجا، وجالام الفرصة سانحة للانفصال، ولم يعد نفوذ ملوك غانا السوننك إلا في بعض المناطق، مثل أوكار، وباسيكورو[1]. وفي كومبي صالح كان كبار موظفي الملك ومستشاريه من المسلمين، حتى في عهدها الوثني، إذ كان المسلمون أكبر طبقة مثقفة، وينسحب هذا على المسلمين، من الوطنيين السوننك، وعلى من هاجر من العرب، واستقر في حاضرة غانا وولايتها[2].

وشجع على ذلك نشاط الحركة التجارية، وتوفر فرص العمل في الإمبرطورية، فضلاً عن استتباب الأمن، لمدة قرنين من الزمن، فقد كان لها فرقٌ تجوب الصحراء، مهمتها الحفاظ على الأمن، وتأديب المجرمين، ولهذا النظام مردوده الاقتصادي في ازدهار المنطقة، لأن الاقتصاد مربوط بالأمن. كما ازدهرت الحركة الثقافية، وارتاد المنطقة العلماء والمثقفون، وقامت مدارس عربية إسلامية.

ومن تقاليد الحكم في كومبي صالح، تلك المجالس التي يعقدها الملك للأبهة والنظر بنفسه في المظالم ؛ وقد أورد كعت عادة خروج الملك كيمع للرعية، فأورد بأنه يخرج إليهم بعد العشاء، ولايخرج حتى تجمع ألف حزمة، يضعوها في باب داره، وتشعل فيها النار، وتعطي إضاءة عالية، عندما يجلس على منصة الذهب الأحمر. كما أورد كعت أن بعض الناس، أخبروه بأنها ألف شقة من الكتان لا من الحطب !. وبعد جلوسه، يأمر بعشرة الآف من الموائد !. فيأكلون وهو لايأكل، وإذا انقضى الأكل دخل الملك ولاتقوم الرعية حتى تصبح الحزمات رماداً، واستمروا على هذه الوتيرة إلى انقراض دولتهم[3].

(1) موسى بن أحمد السعدي، زهور البساتين في تاريخ السوادين، مخطوط، ورقة 100 محمد محمد المفتي (مرحباً)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ السودان، مخطوط ورقة 134 .

(2) البكري، المصدر السابق ج 2، ص 872 وبوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ط: 2 جامعة قاريونس 1988 ص 149 وحسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي 1987 ص 372 .

(3) محمود كعت، المصدر السابق ص ص 41 - 42 .

وما أورده كعت حول خروج الملك كيمع للرعية أستبعده لعدة أسباب، منها :

1 - إن الكتان لايضئ إذا اشعلت فيه النار بالإضاءة نفسها، التى عليها الحطب، بل يحدث دخاناً أكثر من الإضاءة.

2 - إن الكتان لايصنع في غانا، بل يستورد من أوربا والشمال الإفريقي، والأمر لمستبعد أن تحمل كل ليلة ألف حزمة من الكتان لتحرق. ومهما كان من صحة الرواية السابقة، أو عدمها فإنها تكشف لنا عن الأبهة والثراء اللذين كان عليهما ملوك غانا.

- تكشف لنا الرواية عن طريقة جلوس الملك على المنصة المصنوعة من الذهب الأحمر، وهذا يعني أنه كان لديهم عدة أصناف من الذهب، الذي يمثل أهم سلعة تصدر خارج غانا.

- قد توحي لنا طريقة جلوس الملك والمائدة التي يقدمها لرعيته، بالترابط الاجتماعي بينه وبين رعيته .

ومما يحكى في هيئة جلوس ملوك غانا، للنظر في المظالم، أن الملك يجلس في القبة ويسبق جلوسه عادة عندهم. ومن طقوس القصر ضرب طبل كبير يطلقون عليه (دبا)، وإذا ما تناهى صوت الطبل إلى أسماع الناس هرعوا إلى قبة الملك، وعندما يقترب منه أهل مملكته من السودان، فإنهم يجلسون على ركبهم ويضعون التراب على رؤوسهم، وهي تحيتهم، أما المسلمون فتحيتهم عليه تصفيق اليدين، وأما الوزراء فيجلسون على الأرض تواضعاً له.

وأورد الإدريسي عن عدل ملك غانا قوله : «وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ومن سيرته، في قربه من الناس، وعدله فيهم أن له جملة قواد، يركبون إلى قصره في صباح كل يوم ولكل قائد منهم، طبل يضرب على رأسه، فإذا وصل إلى باب القصر، سكت، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ركب وصار، يقدمهم ويمشى في أزقة المدينة ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة، أو نابه أمر تصدى له فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق

قواده. فإذا كان بعد العصر وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده فلايقدر أحد على قربه، ولا على الوصول إليه، وركوبه في كل يوم مرتين، سيرة معلومة»[1].

نستخلص من النص السابق ما يلي :

1 - أن لملوك غانا مكاناً مخصصاً للنظر في المظالم، وهي قبة السلطان، والقبة توحي لنا أن الطرز المعمارية في غانا طرز إسلامية.

2 - الطقوس التي كان عليها القصر، وهي عادة ضرب الطبل لغرض التجمع، مستمدة من الشمال الأفريقي.

3 - الطريقة التي يحيي بها أبناء المملكة ملكهم، تعبر عن الإذلال والخضوع.

4 - احترام ملوك غانا للمسلمين.

5 - التنظيم الإداري الذي كانت عليه الإمبراطورية نظام الوزارات.

6 - عدل ملوك غانا ونزولهم إلى شوارع المدينة للفصل في المنازعات، دليل على تأثرهم بنظم الحكم الإسلامي، وعلى تغلغل الإسلام في نفوسهم، حتى وإن لم يعتنقوه.

لقد كان لهذه الإمبراطورية سلطة تنفيذية، تمثلت في جهاز الشرطة والجيش المركزي المنوط به حماية الإمبراطورية، والمحافظة على الأمن العام بكل فروعه. ولدى جهاز الأمن طريقة لاستخلاص المعلومات من المجرمين، والذي يقوم على هذا الجهاز، يعرف بالأمين، فكل من ادعى عليه بمال، أو دم أو نحو ذلك، شرع أمينهم إلى عود فيه حرفة (ومرارة ورقة)[2]، ويصب عليهم قدرًا من

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق ج 1، ص ص 23 - 24 .

(2) هناك نوع من الأعشاب إلى يومنا هذا موجود في مالي، والنيجر، ونيجيريا، والتشاد والمغرب وليبيا ورقة إبري إذا صب عليه الماء وبقي فترة من الزمن، فإنه يؤثر في الماء ويمنحه طعماً من المذاق، فربما هذا ما يقصده البكري (نبات الرتم) .

الماء، ويسقيه للمتهم، فإن رماه من جوفه، أيقن أنه بريء، وإن كان، غير ذلك أثبت عليه الدعوى[1]. ومن ضبط متلبساً بجريمة السرقة، يخير صاحب الحق بين بيعه، أو قتله عقاباً له على ما اقترفت يداه.

مما سبق يتضح لنا عدة أمور :

1 - أن لهذه الإمبراطورية أجهزة تقوم على تسيير أمورها، بشكل منظم يعمل على استتباب الأمن حتى يعم الرخاء.

2 - أن الذي يقوم بإصدار الأحكام وتنفيذها يدعى بالأمين، وهذاللفظ يدل على أن الذي يقوم بهذه الوظيفة، لابد أن يكون على درجة من الأمانة، والصدق، والعدل حتى لايظلم الآخرين.

ونواصل حديثنا عن الأجهزة التنفيذية بقوة جيش غانا وطريقة تنظيمه العسكري.

أورد البكري عن ذلك بأن لملك غانا جيشاً بلغ مائتي ألف، منهم رماة يزيدون عن أربعة آلاف، وتمتاز خيولهم بقصر قامتها. وأورد قداح نقلاً عن ابن الوردي أن لملك غانا جيشاً ضخماً، أغلبه يتألف من قبيلة الملك ومن المسترقين والمرتزقة، ووصل مقداره إلى ألف ومائتين وأربعين[2].

تسلح جيش غانا بالأسلحة الحديدية، التي ساعدت على تحقيق انتصارات عظيمة على جيرانه، تمثلت في النشاب والمزاريق الحديدية والسيوف والخناجر والسهام السامة، ولجيشها حذق في رميها[3].

---

(1) البكري، المصدر السابق ج 2، ص 877 .

(2) البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 877، ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ص 70 .

(3) نفسه والصفحة، والإدريسي، المصدر السابق ج 1 ص 20 . وبازل دافدتسن، أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال م . أحمد بيروت : دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ ص 138 .

ثـرواتـهـا :

هذا الأمن المنظم ازدهرت به الحركة الاقتصادية، وأعطاها دفعاً قوياً، تمثل في حركة التجارة التي شهدتها البلاد، والتي كان عمودها الذهب والملـح، فقد شهدت غانا حركة تجارية داخلية وخارجية : ارتبطت الداخليـة.. منها مـع باقـي المنـاطـق التـابعـة للإمبراطوريـة، في تبادل السـلع. أمـا الخـارجيـة فقـد ارتبطـت بالشمال الأفريقي وخاصـة المغـرب، وهـذا مـا أكـده الإدريسـي، حينمـا قـال :«وإليها يقصد التجار المـياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمـون، وملكهـم فيما يوصف من ذرية صـالـح »[1].

كما كان لمدينة التكرور، علاقات متميزة مع المغرب الأقصى، حيث يسافرون إليها بالصوف، والنحاس، والخرز، ويعودون منها بالتبر والخدم.

إضافة إلى ذلك شكلت أرض قمنورية جسرعبور لتجارة أغمات، وسجلماسة ودرعة والنول الأقصى، إلى بلاد غانا، وبذلك كانت حلقة الوصل بين هذه المناطق[2].

وأورد صاحب الاستقصاء، أن غانا ينتهي إليها تجار من المغرب، عن طريق سجلماسة، حيث يعود لها التجار من سجلماسة بالبضائع الكثيرة، فتبدل تلك البضائع في غانا بالتبر والخدم، والذي يسافر إليها بثلاثين حملاً يرجع بثلاثة أحمال أو حملين. ويقيم تجار المغرب في غانا عند أميرها، ويكرمهم غاية الكرم[3]. ويبرز هذا المكانة المرموقة التي يحظى بها تجار المغرب الأقصى، لما عرفوا به من الخلق الرفيع والمعاملة الحسنة والعلم الغزير والإسلام الصادق.

(1) الإدريسي المصدر السابق ج 1 ص 18 .

(2) الإدريسي، المصدر السابق ج 1 ص 20 .

(3) ابو العباس أحمد بن خالد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب 1955، ج 5 ص ص 99 - 100، وزكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد فى أخبار العباد، بيروت : دار صادر، بدون تاريخ ص 42 .

إضافة إلى ذلك، كان تجار سجلماسة، وبلاد الزاب، وورقلان، يحملون الفواكه الرطبة والتمر إلى غانا[1].

وتجار المغرب يأخذون، الذهب من ونقارة، ويجعلونه دنانير؛ أي عملة يتعاملون بها في حياتهم اليومية، كما أن تجار ليبيا ارتبطوا بعلاقات وطيدة مع غانا، مثلتها مدينة أوجله، التي كان تجارها يحملون التمور[2] ونحوها إلى كوكو، والملح الذي يحمل من بلاد العرب المغاربة. ويتجهز التجار إلى مدينة كوغة، والتي يفصلها عن غانا مسيرة خمس عشرة مرحلة، بالملح والودع والنحاس، ويوجد بكوغة معدن التبر، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً[3].

كما عرفت غانا نشاطاً زراعياً، كان عماده نهر النيجر، والذي كان ينمو على ضفتيه القصب الشوكي، وأشجار الإبنوس، والشمشار، والخلاف، والأثل التي يزرعونها مرتين في السنة. ويزرعون على النهر البصل، والقرع، والبطيخ الذي يكبر عندهم ؛ كما يزرعون الذرة، والأرز من صنف حبته كبيرة، ذات طعم لذيذ.

ويوجد لديهم شجر طويل الساق يسمى توزي، ينبت في الرمال، وله ثمر كبير منتفخ، داخله صوف أبيض، تصنع منه ملابسهم.

وفي بلدة أوغام، إحدى مقاطعات غانا، يزرع الأهالي الذرة، والبقول التي يستخدمونها في غذائهم اليومي. كما يوجد في بلدة طاقة شجر يسمى (تادمرت)، وهو يشبه شجر الأراك، إلا أن له ثمرة كالبطيخ داخله شئ، يشبه الفند تشوبه حلاوة وحموضة وهو نافع للمحمومين[4].

إضافة إلى الزراعة، كانت غانا تتمتع بثروة حيوانية، برية ومستأنسة،

---

(1) - الإدريسي المصدر السابق، ج 1 ص 20 .

(2) - نفسه ج 1 ص ص 24 - 25 .

(3) - البكري، المصدر السابق ج 2 ص ص 877 - 883 .

(4) - البكري، المصدر السابق ج 872 والإدريسي المصدر السابق ج 1 ص ص 20 - 21 .

فالمستأنسة تتمثل في البقر، والإبل، والغنم، والماعز. أما الحيوانات البرية فتشمل الأسود، والزرافات، والغزلان، والضباع، والفيلة، والأرانب، والقنافذ.

أما الحيوانات البحرية فتشمل الأسماك وحيوانًا مائيًا، قال عنه الإدريسي : إنه يشبه الفيل، وهو يقصد بذلك فرس النهر الذي يصطاد من النهر بضربه بالمزاريق، وتوجد لديهم الحيتان الكبيرة والصغيرة التي يصطادونها ويدخرونها[1].

أما المعادن.. فيعتبر الذهب أهم المعادن في غانا، ويوجد في بلاد ونقارة التي تنقسم إلى عدة مناطق وهي : ترقى، ومداسة، وسغمارة، وسمقندة، وغربيل. وبلاد ونقارة، جزء من غانا تبعد عنها بمسيرة ثمانية أيام، وهي جزيرة طولها ثلاثمائة ميل، وعرضها مائة وخمسون ميلاً، وفي شهر غشت، يغمر النهر الجزيرة، ويمكث فيها مدة، وإذا نقص ماؤها هرع الناس إليها، وجمعوا منها الذهب ؛ وسيرد ذكرها بالتفصيل في الفصل الثاني. ومن بين معادن البلاد معدن الشب، وهو رديء الجودة، إلا أن التجار يخلطونه بالشب الطيب ويبيعونه[2].

ومن بين الحرف التي كان يمارسها سكان غانا صناعة حفظ الأسماك[3]، وصناعة القوارب التي تستخدم في حمل أمتعتهم عبر نهر النيجر، كما كانت لديهم صناعة ملابس من صوف يستخرج من (شجر، يدعى تورزي)[4] ينمو ببلادهم ولاتؤثر فيه النار[5].

وفي خضم هذا التقدم الحضاري، كانت هناك نهضة اجتماعية في هذه

---

(1) نفسه ج 2 ص ص 874 - 879، الإدريسي المصدر السابق ج 1 ص 18 .

(2) الإدريسي المصدر السابق ج 1 ص 24 - 25 - 26 - 29 .

(3) الإدريسي، ج 1 ص ص 20 - 21 .

(4) لقد سألت عن هذا النوع من الأشجار في منطقة غرب أفريقيا، فيبدو أنه لم يعد له وجود، أو أنه من محظ الخيال .

(5) البكري، المصدر السابق ج 2 ص 878 .

الإمبراطورية، فبالنسبة إلى الزي، كان ينقسم إلى قسمين :

- زي للملوك.

- زي عامة الرعية.

بالنسبة لزي الملوك.. فان الملك يتزين بحلي النساء في عنقه وذراعيه، ويضع على رأسه طرطوراً مذهباً، ويضع عليه عمامة مصنوعة من القطن، ويقتصر المخيط على الملك وولي عهده، كما يلبس ملوك غانا إزاراً حريرياً يتوشحون به أو بردة يلتفون بها، وسراويل في وسطهم، ونعل شركى في أرجلهم، وفي الأعياد والمناسبات لهم زي خاص[1]. ويأتي زي الوزراء في المرتبة الثانية بعد زي الملك، فهم يلبسون ملابس فضفاضة ومآزر[2].

أما زي عامة الرعية فيختلف من منطقة لأخرى، ففي التكرور، يرتدي السكان الذين يخالطون البيض الجلود المدبوغة، ويضعون على رؤوسهم قبعات من الصوف، والقطن، والحرير، والديباج على قدر طاقتهم. أما عامة أهلها فيلبسون الجلود لستر عوراتهم ويلبسون القداوير، والأكسية، ويضعون على رؤوسهم الكرازين، وحليهم الذهب، وخواصهم يلبسون الأزر.

أما زي أهل سامة، إحدى مقاطعات غانا، وهي على مسيرة أربعة أيام من غانا، يعرف أهلها بالبكم، فيسيرون عراة، إلا أن المرأة تستر عورتها بسيور تضفرها![3].

أما الزغاوه، فإنهم يلبسون الجلود المدبوغة ويتفننون في صناعتها[4]. وزي أهل ونقارة الأزر، والأكسية، والقداوير، وهم شديدو السواد. ولباس أهالي مدينة غربيل الصوف[5].

(1) الاستبصار، المصدر السابق ص 220، والإدريسي المصدر السابق ج 1، ص 24.
(2) البكري، المصدر السابق ج 2، ص ص 872 - 876، نفسه ج 2، ص 28 .
(3) البكري، المصدر السابق ج 2 ص 872 والادريسي، المصدر السابق ج 2، ص 28.
(4) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص ص30 - 111 .
(5) نفسه ص ص 25 - 26 .

ونساء غانا يرتدين حلياً مصنوعة من النحاس، والخرز، والنظم من الزجاج وغيرها[1]. وقد وصفهن صاحب الاستقصاء بقوله : «والإماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن، فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان وطيب الروائح»[2].

ديانتهم :

يوجد في غانا عدد من الديانات، وهي :

الإسلام ويدين به عدد من السكان وبعض حكام المقاطعات، منهم ملك بلدة ملل، الذي أسلم على يدي الداعيين الليبيين، أبي الحسن علي ابن يخلف النفوسي وأبي عيسى الفرسطائي وأطلق على نفسه المسلماني[3].

ومن الديانات التي يدين بها أهل غانا الوثنية، والمجوسية، وقد أكد ذلك البكري بقوله : «وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم». كما أن أهل صنغانة وسائر السودان على المجوسية وعبادة الدكاكير، والذكور عندهم صنم، وقد ظلوا إلى أن تولى عليهم وارجابي بن رابيس، فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليه.

وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة 432 هـ/ 1040 وأهل التكرور في فترة البكرى على الإسلام[4].

---

(1) - الناصرى، المصدر السابق ج 5 .

(2) - الناصري، المصدر السابق، ج 5، ص 100 .

(3) - مقرين بن محمد البغطوري، مخطوط ورقة 52 والبكري المصدر السابق، ج 2، ص 875 أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، الشماخي كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة : المطبعة البارونية 1889م، ورقة 459 - 457 . الجيب الجنحاني كتاب طبقات المشائخ لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني حوليات الجامعة التونسية، تونس : كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1977، ع 15 ص 164 .

(4) - البكري المصدر السابق، ج 2، ص 868 - 872 - 873 .

بعد هذا المجد الذي شهدته غانا في كافة المجالات، بدأ الوهن ينخر أوصالها، وبدأت تدب فيها حركة الشيخوخة والهرم، نتيجة لعدة ظروف مرت بها، وكذلك انهارت من على مسرح الأحداث، ولم تستطع مقاومة التيار الجارف الذي أحاط بها.

انهيار غانا :

هناك عدة عوامل أدت الى انهيار غانا، منها عوامل طبيعية، ومنها تعرضها إلى جهاد المرابطين. وقد جاءت نهايتها من مسرح التاريخ السياسي في غرب أفريقيا على يد الصوصو في عام 600هـ/ 1203 م، بتدمير ماري جاطة لما بقى من حاضرة غانا وضمها إلى مملكة مالي الإسلامية.

وقد انتهت غانا من المنطقة في مطلع القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، غير أن عوامل الانهيار كانت قد بدأت قبل ذلك بأمد طويل، وأولها عامل طبيعي بدأ قبل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، تمثل في الجفاف التدريجي الذي حل بالبلاد الواقعة شمال حوض السنغال؛ مما حمل الناس على الهجرة.

ويتمثل العامل الثاني في جهاد المرابطين بمنطقة السودان الغربي، قرب نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وإن كان جهاد المرابطين لم يؤد، إلى اختفائها غير أنه أدى إلى تحول حكومة غانا إلى الإسلام، وهذا ما سنتناوله فيما يأتي :

المرابطون ودورهم في إسقاط غانا:

قامت دولة المرابطين في الجهة الغربية من الصحراء الكبرى، وكان هدفها الأساسي الجهاد في سبيل نشر العقيدة الإسلامية وإزالة الشرك، والبدع، فبعد وفاة أبى عبد الله، تولى أمر صنهاجة ابنه «يحيى بن إبراهيم الجدالي» وفي عام سبع وعشرين وأربعمائة 427 هـ / 1035 م، استخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم، وسافر يحيى إلى الأراضي المقدسة، لأداء فريضة الحج، وعند عودته من الحج مر بمدينة القيروان فلقى الشيخ أبا عمران الفاسي وحضر معه درساً من

دروسه الدينية، فتأثر به وبعلمه الفياض، وتناقش معه في عدة أمور، وأخبره عن وطنه ورغبته في تعليمه وتعليم رعيته أمور الدين الإسلامي على حقيقته، ولذلك طلب يحيى من الشيخ الفاسي أن يبعث معه معلماً الى بلاده، يعلمهم تعاليم الإسلام الصحيحة، فبعث إلى تلميذه «وجاج بن زلو اللمطي»[1]، الذي يطلق عليه صاحب الحلل الموشية، «وكال زلو»[2]، وعندما وصل يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى بلاد السوس وقابل وجاج، وأخبره عما جرى بينه وبين الشيخ الفاسي، فما كان من وجاج، إلا أنه استجاب إلى طلب شيخه، وخصص له تلميذه عبد الله بن ياسين الجزولي لما كان يتمتع به من حسن خلق وورع، وحجة في الإقناع بالمذهب المالكي.

كما أنه اختاره لمهمة شاقة في الصحراء، لأنه كان كثير التردد على الصحراء وبذلك يستطيع أن يتكيف مع طبيعتها أكثر من غيره[3].

واصل يحيى بن إبراهيم، ومعه الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين، رحلته الى قبيلة جداله، ثم باشر بعد وصوله مهمته التي جاء من أجلها، تاركاً أهله وأبناء جلدته من أجل نشر دين الله، واجتمع حوله نحو سبعين شيخاً من فقرائهم، يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم الى قواعد الإسلام، ويحذرهم من العادات القبيحة التي لاتمت للإسلام بصلة، مثل الزنا الذي كان منتشراً بينهم، وقد وجد معارضة كبيرة من طرف قبيلة جداله، الأمر الذي جعله يقرر الرحيل عنهم إلى بلاد السودان، حيث سمع أن بها مسلمين، غير أن يحيى رفض مغادرته لهم،

(1) الناصري، المصدر السابق، ج 2 ص 5 وآدم عبد الله الألوري، الإسلام في نيجيريا، ط : 3 1972م، ص 22 ومحمد عبد الهادي شعيرة المرابطون تاريخهم السياسي، القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة 1969م ص 128 . والهادي المبروك الدالي وعمار هلال، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا 1850 - 1914 اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت : دار صنين للطباعة والنشر 1996 ص ص 29 - 30 .

(2) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء : مطبعة دار الرشاد الحديثة 1979، ص 20 .

(3) الناصري، المصدر السابق، ج 2، ص ص 6 - 7 .

وقال له: لقد أتيت لتعليم أبناء جلدتي تعاليم الإسلام، واقترح عليه يحيى أن يذهبا معاً إلى جزيرة بالقرب من مضارب خيام قبيلة جداله، وتم ذلك، وبدأ عبد الله بن ياسين ومعه رفيقه يحيى بن إبراهيم، بعد انضمام أعداد كثيرة من أتباعهم يعدهم، للعمل العظيم، ويشرح لهم تعاليم الإسلام السمحة، ويرسخ في نفوسهم العقيدة الإسلامية. وعندما أحس منهم القوة والرغبة الصادقة في الجهاد أمرهم بغزو جداله، فغزوها ودانت لهم واستقام أمرها، ثم وجه أتباعه إلى قبيلة لمتونة، وبذلك ارتفعت كلمة لا إله إلا الله عالية خفاقة، واستطاع أن ينتزع من صدورهم البدع والشرك، ويجسد فيهم قواعد الإسلام السمحة.

وبعد ذلك واصل عبد الله بن ياسين ورفاقه سيرهم المقدس إلى مدينة سجلماسة، وكانت في تلك الفترة تحت حكم «مغراوة»، وأعلن الجهاد عليها وتم له النصر، ودخلت في دين الله أفواجا، ثم زحف على مدينة أودغست المدينة الثانية في إمبرطورية غانا الوثنية عام 446هـ/ 1054م وانتصر عليها.

وفي عام 448 هـ/ 1056م أصبح رباط أودغست، مركزًا من مراكز الجهاد ونقطة الانطلاق نحو القبائل، التي تحاول شق عصا الطاعة على العقيدة الإسلامية، غير أن يد المنية باغتت يحيى بن إبراهيم، بعد جهاد طويل وشاق مع إمامه الروحي عبد الله بن ياسين. وفي هذه الظروف الصعبة أشار عبد الله بن ياسين بتعيين أبي بكر ابن إبراهيم، وواصل هذا الأخير من بعده حركة الجهاد إلى أن توفي عبد الله بن ياسين عام 451هـ/ 1059م[1].

واصل أبو بكر بن إبراهيم مسيرته المقدسة في إعلاء كلمة لاإله إلا الله عالية، فتحرك صوب الجنوب، وجمع «الفلانيين» وقبيلة لمتونة، ودخل بهم في معركة ضد إمبراطورية غانا الوثنية، وقد كلل عمله بالنجاح؛ حيث استطاع تقريب

(1) علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط : مطبعة دار المنصورة للطباعة والوراقة 1973، ص ص 122 - 125، والناصري، المصدر السابق، ج 2 ص ص 11 - 10 وأحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1963، م ج 6 ص 108 .

نهايتها والسيطرة على حاضرتها كومبي صالح، وصارت غانا تحت رحمة المرابطين عام 469هـ/ 1076م[1].

غير أن هذه الانتصارات لم تدم طويلاً في السودان الغربي، فوفاة أبي بكر عام 480 هـ/ 1087 م، واختلاف أتباعه فيمن يحكم بعده، وانشغال المرابطين بأمور المغرب الأقصى فرض على المرابطين التخلي عن الجهاد المقدس؛ لنشر مبادئ الإسلام فيما وراء الصحراء، إلاَّ أن أهم شيء تركه المرابطون بعد رحيلهم، هو تأكيد العقيدة الإسلامية في تلك البلاد، والتي لم تتأثر بالنصر أو الهزيمة، وهذا ما أكده الإدريسي في معرض حديثه عن غانا قائلاً : «غانا مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون»[2].

وخير ما نختم به حديثنا عن المرابطين ودورهم في السودان الغربي، وتقريبهم ليوم سقوط غانا، أن جهادهم كان السهم القوي الذي وُجه إلى الوثنية والشرك في هذه المنطقة، وهو الذي قرب من مصرعها في تلك الديار، وبذلك يعتبر تدخلهم حلقة من حلقات الجهاد ضد الوثنية. ولم يكن هدف جهادهم مادياً بحثاً، كما يدعي عدد من الأوربيين الذين يحاولون تشويه مسيرة الإسلام بقولهم : إن دخول المرابطين إلى منطقة السودان الغربي، ومحاولتهم إسقاط غانا كان سببه الذهب الأصفر الرنان.

إن هذا الإدعاء هو محض افتراء على حركة المرابطين والدين الإسلامي والمسلمين؛ فالإسلام لم يأت لنهب وسلب خيرات الشعوب، ولكن جاء إلى هذه البقاع لإخراجها من الظلمات إلى النور. وإذا كانت الشريعة الإسلامية

(1)- أحمدأحمد بابير الأروانى، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 2 ونقولاى زيادة، أفريقيا دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، 1991، ص 343.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ج 1 ص 23.

تعني تنظيم الاقتصاد فهذا لايؤخذ مأخذاً آخر، فالإسلام عندما يأتي إلى أي مكان فمن بين أهدافه تنظيم اقتصاده بتوزيع الأموال بالتساوي بين الأفراد، بحيث يعم الخير الفقير والغني، بل إنهم يتساوون في الحقوق والواجبات، والفرق بينهم هو الجد والاجتهاد فهو المعيار الوحيد الذي يميزهم عن بعضهم بعضًا، ومن هنا خدم الإسلام الاقتصاد ووجهه الوجهة الصحيحة، كما أنه نظم الجوانب السياسية والاجتماعية بدقة متناهية، لامثيل لها في أي نظرية من النظريات الوضعية السائدة في العالم.

ثانياً : قبائل الصوصو تتزعم حركة النضال فى المنطقة :

بعد خروج المرابطين من المنطقة تركوا فراغاً سياسياً، لقبائل الصوصو، فانتهزت الفرصة قبائل السوننكى، شعب إقليم «الصوصو»[1] التابع لغانا؛ لإعلان استقلالها في اوآخر القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادي، عندما بدأت غانا تتأرجح تحت ضربات المرابطين الموجعة عام 469 هـ/ 1076م.

وكان يتزعم الصوصو، فرع من أسرة سركله، يعرف (بجرسو)، وفي عام 576 هـ/ 1180م، خلعها من على العرش «جوة كنته» من أصل السركله، الذي لعب دوراً بارزاً في توسيع رقعة الصوصو بضم وغدو، وبفنة اللتين كانتا تابعتين إلى كومبي صالح، وهي تقع على ضفتي نهر النيجر الأعلى[2].

والجدير بالملاحظة أن ملك صوصو سالف الذكر، ارتبط بعلاقات وطيدة مع أفلح بن عبد الوهاب أمير جبل نفوسه، بأن بعث للأخير وفداً يحمل رسائل مؤزرة على انتصارات الصوصو، ويرأس الوفد محمد بن عرفه، وقد استقبل الوفد بكل حفاوة وتكريم من طرف ملك صوصو وقال ملك صوصو مادحاً

---

(1) - يطلق ابن خلدون على الصوصو أمة صوصو بقوله "وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما يزعم الناقلون تعرف صوصو... ثم أمة أخرى تعرف مالى" ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص ص 199-200.

(2)-محمد السالك بن خى التنواجيوى، فوائد من غابر الأخبار في تاريخ الدول وأصول الأنساب، مخطوط، مكتبة الباحث ورقة 12-13، وعبد الرحمن زكى، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المرجع السابق ص 30.

رئيس الوفد (بلهجة عرب المغاربة)[1] «أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأفعال»[2].

وهذا يدعونا إلى التساؤل الآتي :

هل كان ملك صوصو من أصل عربى مغاربى ؟.

توجد عدة احتمالات للإجابة عن هذا التساؤل، من بينها :

1 - علاقة أبناء المنطقة الوطيدة بمناطق الشمال الأفريقي، حتى أنهم اكتسبوا هذه اللهجة.

2 - قد يكون ملك صوصو من عرب مغاربة الشمال الإفريقي، الذين وصلوا لتلك المناطق.

3 - وقد يكون لملك صوصو مترجمون عارفون بلهجة عرب المغاربة.

إضافة إلى الانتصارات السابقة، استطاع «سومانجورو» ذلك البطل المغوار، في بداية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، أن يستولي على قصبة غانا عام 600 هـ/ 1203م ؛ وأمام هذا النصر المؤزر الذي حققه سومانجورو أراد أن يوسع دائرة نفوذه، فهاجم قبائل الماندنجو في الجنوب، غير أن نتائج نشوة النصر كانت عكسية، فهزم في معركة كبرينا، حوالي سنة 633هـ/ 1235م، وبذلك استولى الماندنجو على بلاده، وعاد أغلب أهل الصوصو يجرون أذيال الخيبة والهزيمة بعد وفاة ملكهم برمح مسموم على أرض المعركة[3]، وفي هذا الخضم السياسي، والحسم العسكري اضطلعت مملكة مالي الإسلامية بدور الريادة في المنطقة.

---

(1)- مايطلق عليه عرب المغاربة في الحقيقة هي الهجرات العربية الأولى، التي استقرت في الشمال الإفريقي، وقد اطلق عليهم الرومان كلمة العرب المغاربة.

(2)- سليمان عبد الله البارونى، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباطية، تونس : دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1986، ص ص 184 - 223.

(3) - محمد محمد المفتى (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر مخطوط، مكتبة الباحث دون تصنيف، مخطوط ورقة 50-52، وحسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، المرجع السابق، ص 10.

ثالثاً : مملكة مالى الإسلامية :

بعد تفكك إمبراطورية غانا الوثنية عام 460 هـ/ 1076م بفعل جهاد المرابطين، وانسحابهم من المنطقة، وُجد فَراغٌ سياسي، جعل عدداً من الأقاليم التابعة لغانا تنفصل عنها، وتكون دويلات مستقلة، وتمخض عن هذا الصراع من أجل السلطة أن آل الأمر أخيراً إلى قبائل الماندنجو المسلمة، القاطنة في مقاطعة (كانجاب)، والتي يرجع إليها الفضل في تكوين مملكة مالي الإسلامية بقيادة سندياتا كيتا، الذي سيرد ذكره فيما بعد.

الماندنجو : تحمل تسمية الماندنجو عدة مضامين متقاربة، والمتعارف عليه منها المانكا، أي الماندنكا، والماندي، أو ماننج، أو ماننجا، أو ما ندنج[1] وهي كلها متقاربة في حروفها. وكلمة ماندي تتكون في لهجة قبائل السوننك، أحد فروع الماندنج، من مقطعين، هما: (ما) + (دي) وحرف الربط (ن) ويعنى المقطع (دي) في اللهجة السوننكية (في) أو (عند)، ويعني المقطع (ما) السيد أو الحاكم، ومن هنا فكلمة ماندى عند السوننك تعنى مركز إقامة السيد أو الحاكم، وبمعنى آخر العاصمة[2].

كما أن هناك تفسيراً آخر لكلمة "ماندنج"[3]. أما (ما) فتدل على معنى

---

(1) - مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش وحروبهم مع هكار وادنان مخطوط، مركز احمد بابا التنبكتي رقم1050، ورقة 10، وابراهيم علي طرخان، دولة مالي الإسلامية، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973 ص 27 والهادى المبروك الدالي، مملكة مالى الاسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت: دار صنين للطباعة والنشر1996، ص 23.

Triminghan L.A History of lslam in West Africa, Oksford 1967- P: 14.

(2) - موسى بن احمد السعدى، مخطوط، ورقة 69 والحسن القنصي "التطور التاريخى لمالى، بحث مقدم للمركز الثقافي الليبي باماكو 1985 ورقة 7، لم ينشر.

(3) - تنتشر لغة الماندنجو في وقتنا الحاضر في المناطق الجبلية بأعالى نهر السنغال، وتتركز القبائل الناطقة بها في أقاليم سانجاران، وجانجاران، وبامبوك ووادي غامبيا الأدنى، كذلك تنتشر هذه القبائل شمالا حتى الصحراء الكبرى.

الأم، وكلمة (دنج) تدل على معنى الطفل، أو الابن، والكلمة مجتمعة تكون بمعنى (ابن الأم) ؛ وهذا يدل على أهمية النسب إلى الأم، وهو أمر مألوف عند الماندنجو.

أما السعدي فيقول : إن مؤسس هذه السلطنة شعب زنجي أصيل[1].

والباحث المالي الحسن القنصي له قولٌ آخر في ذلك، فقد أورد «أن هذه التسميات أخذ بها عدد من الشعوب، احتكوا بهذه القبائل، فأطلقت قبائل الفولانيين والتكاره لفظ المالنك، وقبائل موسى هي الأخرى، أعطتهم لفظ ونقارة، وكانت تقصد بذلك الماندنج، وخاصة فرعيه السوننكي والجولاء»[2].

كما أن قبائل البامبارة أحد فروع الماندنجو، تستخدم كلمة (مانى) ؛ للدلالة على مجموعة قبائل الماندنجو[3].

وعلى العموم . . فإن كلمة (ماندي) ماهي إلا اصطلاح لغوي، أكثر منه جنسي يقصد به مجموعة القبائل الناطقة بلغة الماند.

وقد امتدح عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين قبائل الماندنجو، واعتبروهم من أرقى أجناس أفريقيا، وأكثرهم ذكاءً، وفطنة، وأجدرهم بالاحترام والتقدير، وهم الذين حملوا لواء الإسلام، في تلك المناطق[4].

وبخصوص تسمية «مالي» أو «مل» فقد تناولها عدد من المؤرخين منهم

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 9.

(2) - الحسن القنصي، التطور التاريخي لمالي، المرجع السابق ورقة 2.

(3) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 70 وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 27.

(4) - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ط : 2 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر بيروت الرباط : دار الغرب إلاسلامي والشركة المغربية للناشرين المتحدين 1983 ص 165، وتوماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ط : 3 ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، القاهرة : دار مكتبة النهضة المصرية 1970 ص 356 وأحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج 6 ص 222 .

البكري، وأبو حامد الغرناطي، والإدريسي، والعمري، وابن بطوطة، وابن خلدون، والقلقشندي، والحسن الوزان، والسعدي، وصاحب الفتاش، فالبكري يطلق عليها "ملل"[1] وابن بطوطة مالي، حينما قال : "ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة، وهو على نحو عشرة أميال من مالي"[2].

أما السعدي فيعرفها "ملي"[3]، وكعت يطلق عليها "مل"[4] والحسن الوزان يسميها "مالي"[5]. وقد عرفت دولة مالي كذلك ببلاد التكرور، واشتهر ملكها باسم ملك التكرور، والصحيح أن التكرور أحد الأقاليم، التي خضعت لسيادة دولة مالي.

ويقول القلقشندى : "مالي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور"[6].

حدودها :

تغطى مملكة مالي الإسلامية مساحة شاسعة من الأرض، فهي تمتد شمالاً إلى تخوم المغرب الأقصى، وغرباً إلى المحيط الاطلسي، وشرقاً إلى حدود بلاد برنو.

وأورد القلقشندي نقلاً عن سعيد الدوكالي قائلاً : "إن هذه المملكة مربعة طولها أربعة أشهر أو تزيد وعرضها مثل ذلك وجميعها مسكونة إلا ماقل، وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين " وأضاف لأنه يحدها من الغرب البحر المحيط وبلاد برنو من الشرق، ومن الشمال جبال البربر، و من الجنوب الهمج . . . "[7].

(1) البكري، المصدر السابق، ص 875 .

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681.

(3) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 9.

(4) محمود كعت، المصدر السابق ص 38

(5) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1 ص 164.

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ص 282.

(7) نفسه، ج 5 ص ص 212-282 ومحمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكرومصطفى محمد سعيد، مراجعة مصطفى زيادة، الدار =

أما العمري فقد أورد بأن طولها نحو سنة[1]. كما أورد حسن الوزان، أيضاً أن هذه المملكة تمتد على طول أحد فروع النيجر في مساحة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة للمملكة السابقة (جني) من جهة الشمال، وقفار، وجبال وعرة من جهة الجنوب، وتحدها من الغرب غابات مهجورة تمتد إلى المحيط الأطلسي، وشرقاً إقليم كاغو. وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون تسمى مالي[2].

ويرى زباديه أن مالي تشمل مالي الحالية وأعالي السنغال الشرقي، وشمال كل من فولتا العليا والداهومي، والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا[3].

ومن خلال هذه الآراء التي تتناول حدود مملكة مالي، نستنتج أنها كانت مملكة مترامية الأطراف، وبهذه المساحة الشاسعة تمكنت من النهوض اقتصادياً، كما سيأتي فيما بعد.

ملوكها :

لم تكن أسرة كيتا هي الأسرة الأولى التي حكمت مالي، بل سبقتها إلى ذلك أسر لم تكن ذات شهرة كبيرة، ومن هذه الأسر : أسرة (باكابوكو)، وأسرة تراوري، وأسرة (كوفاتى) والكوناتين، والكاماروين[4].

= المصرية للتأليف والنشر، 1965 م، ص 134، وبازل دافدسن، أفريقيا تحت أضواء جديدة، المرجع السابق ص 147 والهادي المبروك الدالي، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق ص 61.

(1) - أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء : مطبعة النجاح الجديدة، 1988، ص 74.

(2) - الحسن الوزان المصدر السابق، ج 1 ص 164.

(3)- عبد القادر زباديه، مملكة سنغاى في عهد الأسقيين، المرجع السابق، ص 21.

Joseph Ki-zerbo : "Histoire de l'Afrique Noire" Paris : Hatier, 1978, p - (4) - 130.

والحسن القنصي المرجع السابق، ورقة 7 وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق، ص33.

وهذه الأسر حكمت مالي، وهي مقاطعة من مقاطعات إمبراطورية غانا في إقليم كانجاب. وقد أورد ابن خلدون أن برمندان حكم مالي وحج واقتفى سنته الملوك من بعده[1].

ومن خلال استقراء الأحداث، فإني أرجح رأي طرخان، ولكنني لا أعتبر هذه الأسر هي المؤسس الحقيقي للمملكة، ولكن في حد ذاتها ماهي إلا إرهاصات أولية لقيامها.

أما المؤسس الحقيقي لها فهو سندياتاكيتا.

يرجع سندياتاكيتا إلى ابن ناري فامغان بن ناري فامغان بن موسى كيتا، المعروف بموسى الأكوري، وقد اشتهر سندياتا بلقب ماري جاطة، وأعطى ابن خلدون تفسيراً لماري جاطة، فماري بمعنى الأمير، الذي يكون من نسل السلطان وجاطة الأسد[2]. والكلمتان تعنيان الأمير الأسد. وقد خالفه في هذا الرأي محمد محمد المفتي (مرحبًا)، الذي أورد أن ماري اللقب ومدلوله تحريف لكلمة محمود أي محمد، وأن اختلاف نطق الكلمة يرجع إلى اختلاف لهجات القبائل[3].

وبالنظر إلى هذين الرأيين.. فإني أرجح رأي ابن خلدون لأن ماري في لغة الزنج تعنى أمير، وجاطة تعنى اسم الأسد إلى اليوم.

كما ان المصادر والمراجع لم تسعفنا إلا بالشيء اليسير عن حياته، فقد أفاد بعضها أنه كان معتل الصحة ! وله إخوة هو أصغرهم[4].

ومن وجهة نظري أستبعد هذه المعلومة؛ لأنه لا يعقل أن رجلا معتل الصحة يدبر أمر البلاد ويخطط عسكريًا، ويهاجم، ويستولي على خصمه، ويؤسس

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 200.

(2) نفسه والصفحه.

(3) محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 32.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 200.

مملكة مترامية الأطراف. والمهم في الأمر أن سنديات أخذ على عاتقه أمر بلاده، واستطاع الانتصار، على قبائل الصوصو، وتوطيد أركان دولته الناشئة. وقد قام بتنظيمات إدارية، وبذلك قسم البلاد إلى أقاليم، يحكم كل إقليم حاكم من العائلة المالكة، على أساس وراثي[1] . كما قام بتوسيع رقعة مملكته بأن استولى على الأماكن المهمة، فسيطر على مناجم الذهب، وعلى جانجاران وبامبوك، وبوندي، واتجه نحو الغرب متوغلاً إلى أن وصل وادي نهر غمبيا، وبلاد التكرور، وبلاد الجلف[2].

لقد قضى في حكم البلاد قرابة عشرين سنة إلى أن توفي عام 653 هـ/ 1255م؛ وعند وفاته كانت مملكة مالي قد اتسعت في حدودها، إلى بلاد الولوف غرباً عند المحيط الأطلسي، وإلى أواسط النيجر شرقاً، ومن فوتاجالون إلى كومبي صالح، عاصمة غانا السابقة شمالا[3].

واتصفت فترة حكمه بالأمن والرخاء الاقتصادي، وسار أتباعه الذين جاءوا من بعده على نهجه، متبعين سياسته الحكيمة، التي ترمي إلى التعاون مع زعماء القبائل التي تقع ضمن نفوذهم بإنشاء صداقات ومصاهرات، ومنحهم إدارة الأقاليم مقابل ولائهم له، وأخذ أبنائهم رهائن في قصر الملك طوال فترة إدارتهم للأقاليم.

وقد تولى بعده ابنه منسا ولي، ومعنى ذلك السلطان علي وهو الابن الأكبر لسندياتاكيتا، وعرف منسا ولي لدى أهالي مالي بالملك الأحمر؛ نظراً لأنه كان شديد البياض[4] ، وربما يعود الأمر إلى ما ذهب إليه محمد محمد المفتي (مرحبًا) من أن أسرة كيتا قد جاءت من اليمن فيه نوع من الصحة. كما أن والده قد يكون

---

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 70

(2) محمد محمد المفتي (مرحبًا) فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 27-28

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 200

(4) - Sckene Mody cissoko, op cit, p. 52

تزوج من امرأة عربيـة[1]، وهو الأقرب في نظري إلى الحقيقة. نهج الملك منسا ولي سياسة والده بأن اعتمد على قواد أبيه ومستشاريه وقد شدوا من أزره، وساعدوه في حركة التوسع، فقد قام سفكرو ماسيوكو بأخذ بانبوك (وماكيتا)، وسيطر على (كونكو دوجو)، (وساني نيانجا) (وسانجاران)[2].

وبعد أن ذاع صيته وأحكم سيطرته على البلاد، قام برحلة إلى الأراضي المقدسة في عهد الظاهـر بيبرس سلطان مصر المملوكي. وكانت ترافقه في هذه الرحلة قافلة ضخمة كان خط سيرها الطريق الصحراوي، مارة بليبيا عبر غات، واتجهت نحو مصر، ومنها إلى الحجاز. واشتهرت هذه الرحلة بصداها البالغ لما حملته من ذهب وعبيد، وخيرات أفريقيا؛ حيث تعتبر عملاً من أعماله المهمة، وهي تعريف بالمنطقة أكثر من أي شيء آخر[3].

ومن بين الأعمال التي تحسب في ميزانه البطولي، غزو جنجرا، وونقاره، المنطقتين الهامتين اللتين يوجد بهما معدن الذهب. كما أنه اتجه صوب سنغي واقتطع جزءاً منها، واستولى على رهائن لملك سنغي، وهي دويلة ناشئة في تلك الفترة، وكان أحدهم ابن الملك ذا ياسين؛ حتى يضمن بذلك ولاءهم له.

ومن خلال ما تمت الإشارة إليه، ندرك بأن مملكة مالي في فتراتها الأولى، لم تكن قد وضعت يدها على كل أراضي دولة غانا السابقة، بل كانت هناك دويلات استطاعت تنغيص حياة مملكة مالي بالاستقلال عنها، وتكوين قوى مناوئة لها.

استمر منسا ولي يحكم البلاد قرابة خمس وعشرين سنة، شهدت خلالها نوعاً

(1) في علم الجنات، الرجل الأسود والمرأة البيضاء في الأغلب الأعم، يخرج المولود الأول يحمل جنات والده أي أسود، أما الثاني والثالث فعادة جنات أمه. هذا ما أورد علماء الجنات.

(2) تقي الدين أحمد علي المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق وتعليق جمال الدين الشيال، القاهرة ؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1955 ص110 وطرخان، دولة مالي إسلامية المرجع السابق، ص 94 .

(3) المقريزي، المصدر السابق ص 111، وآدم عبد الله الألوري موجز تاريخ نيجيريا، بيروت : دار مكتبة الحياة، 1965، ص 155 وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق ص 111.

من الرخاء والأمن. ويذهب بعض المؤرخين إلى تحديد فترته من 653 - 669 هـ / 1255 - 1270م[1]، إلا أني أخالفهم الرأي بأن فترته كانت من 653- 674 هـ/ 1255 - 1275 أو يزيد لعدة أسباب، منها :

1- أنه قد تولى بعده أمر البلاد سبعة ملوك ضعاف.

2- أن البلاد لا يمكن لها أن تستمر فترة من الفوضى إلى أزيد من خمس سنوات. إن لم نقل أن الملوك السبعة كانت فترتهم ربما سنة فقط؛ لأن هذه المنطقة بها نهضة سياسية، واقتصادية، واجتماعية، لايمكن أن تستمر في ظل هذه الفوضى لفترة طويلة من الزمن، والدليل على ذلك .

3 - خروج ساكورة من دائرة وضعه الاجتماعي، وانتزاع الحكم من أولئك الملوك الضعاف.

وعلى الرغم من أن هذا الملك لم يكن من البيت الحاكم. . فإنه قد استطاع انتزاع أمر البلاد على إثر انقلاب، قتل فيه السلطان الشرعي عام 684 -700 هـ/ 1285-1300 م[2].

وقد استطاع ساكورة أن يخطو بشعبه خطوات ثابتة، برهنت على أن الذي يتولى أمر البلاد ويصل بها إلى مدارج العلا، لا يشترط أن يكون من أبناء السادة والملوك، وإنما هو الإنسان المدبر ذو العقل الثاقب والتخطيط المحكم.

كانت أول أهداف وطموحات الملك ساكورة هي إخضاع المناطق المتمردة على مملكة مالي الإسلامية، وضمها إلى دائرة حكمه؛ فوجه قواته الضاربة إلى بلاد كوكو، والتكرور، وونقاره، وجاو في الغرب، واستطاع هزيمتها، وضم هذه البلاد إلى مملكته.[3] ومن مهامه الناجحة رحلته إلى الأراضي المقدسة أيام

---

(1) - جبريل ن. نياني، مالي والتوسع الثاني للماند، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1982 المجلد الرابع، ص 159 .

(2)- ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص200 .

(3) - تقي الدين أحمد علي المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، المصدر السابق، ص111 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق ص 51 وعبدالرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية المرجع السابق ص ص 103-104.

الملك الناصر محمد بن قلاوون، التي سلك فيها طريق أكسوم في الحبشة، وذلك بأن توجه إلى السودان الشرقي عن طريق البحر الأحمر، وعند وصوله لساحل تاجورة بالصومال[1]، هجمت عليه قبائل الدناكل، وقتلته عام 700 هـ / 1300 م، وبذلك انتهت فترة حكمه التي دامت زهاء خمس عشرة سنة من الكفاح المتواصل[2]. وقد ازدهر عهده بنهضة سياسية، تمثلت في توسيع رقعة بلاده واستتباب الأمن فيها، ونشاط اقتصادها المتمثل في ورود تجار الشمال الأفريقي إلى بلاده.

بعد وفاة ساكورة، رجع حكم مملكة مالي إلى أسرة كيتا، فتولى أمر البلاد الملك منسا موسى الذي يعتبر أقوى ملك حكَم مالي على الإطلاق . وقد اختلف كثير من المؤرخين حول تاريخ تولي الملك منسا موسى أمر البلاد، ولكن أقرب الفرضيات هي التي تقول : إنه بدأ في تسيير الحكم ما بين عامي 707 - 733 هـ/ 1312 - 1337 م[3].

وقد اختلف عدد من المؤرخين في اسمه، فمنهم من أطلق عليه موسى ابن أبي بكر الأسود[4]، وجعله صاحب الجواهر الحسان منساموسى[5] وصاحب السعادة الأبدية يدعوه موسى بن أبي بكر[6]. ويتفق ابن كثير، وابن خلدون،

(1)- وقع الباحث خالد الشكري في لبس، فأورد في دراسته السالفة الذكر بأن المدينة التي قتل فيها ساكورة مدينة تاجورة بليبيا، وهي في الحقيقة تاجورة الصومال .

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص200، وعبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق، ص104.

Skene Mody cissoko; Tonbouctou L'Empire Songhai ; Dakar les nouvelles Editions 1975 p: 104.

(3) - الهادي المبروك الدالي العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق، ص ص 32-33.

(4) - أبو محمد عبد الله بن أسعد علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي اليمني الملكي، مرآة الجنان، وعبر اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، حيدر آباد الدكن، 1331 هـ ح4 ص271.

(5) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 5.

(6) - أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، مخطوط مكتبة الشريف مولاى زيدان، دون تصنيف، ورقة 11.

والقلقشندي فيسمونه منسا موسى بن أبي بكر[1]، غير أن صاحب كتاب بدائع الزهور أطلق عليه موسى ابن أبي سالم التكروري[2]. ويبدو أن محمد الحنفي تأثر بما أطلقه عليه حكام مصر بملك التكرور، وأخذ التسمية على علاتها دون تمحيصها.

ويتضح من هذه الاختلافات، أن ما اشتهر به هو الملك منسا موسى أو كنكه موسى. ومنسا في لغة الزنج تعني ملك وموسى اسمه. أما لقبه كنكه موسى فكنكه اسم أمه، وهو ما درج عليه أهالي السودان الغربي من نسبة الابن إلى أمه؛ نظراً لأن الأم في تلك الفترة تتزوج أكثر من رجل، ولذلك ينسب الأبناء إليها، ومنهم من يرى أن كنكه موسى تعني حاكم موسى بمعنى كي حاكم مل[3]، ولكن ما أوردناه من أن كنكه اسم أم منسا موسى هو أقرب إلى الحقيقة من غيره.

أما عن مسيرته السياسية.. فقد وجد البلاد في حالة من عدم الاستقرار الأمني، الذي جره مقتل ساكوره، وتولي ملوك ضعاف، لم تسعفهم الظروف بتسيير دفة الأمور، وخلق نوع من الفوضى وتدهور في الاقتصاد، بكساد التجارة وتمرد بعض أمراء المقاطعات بالانفصال، وبذلك وجه جهوده منذ تقلده أمور الحكم لصيانة النظام، والأمن، وتوطيد علاقاته مع جيرانه من الشمال الأفريقي، وبلغت شهرتها الأندلس، وأوربا، والشرق العربي، والشمال الأفريقي، فأخلاقه وورعه أكسبه حب الرعية، وتفانيهم في طاعته واحترامه، فكان يعتق كل يوم ألفي شخص من الرق[4].

(1) أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف 1966 م ج 4 ص 200، وابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 200، والقلقشندي، المصدر السابق ج 5 ص 294.

(2) - محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط: 2 القاهرة : 1963، ج 1، ص163

(3) - مجهول، أصل سلطنه برنوح، مخطوط مكتبة عبد القادر التبين بأقدز، دون تصنيف، ورقة 2 وإبراهيم زكى وخورشيد وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية مادة تنبكت ط : 3، القاهرة : دار الشعب 1969 المجلد العاشر ص 13.

(4) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة2.

وقد وصفه ابن خلدون بأنه «كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه»[1] كما ذكر عبد الرحمن السعدي بأنه : «صالح عادل لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل»[2] . ومدحه أحمد بابير الأرواني بقوله: «وكان ملك مالي هو السلطان منسا موسى ابن أبي بكر من أعظم الملوك في عصره، وهو أول من ملك السودان ملكا حقيقيا، وكان قبل ذلك تتقاسم الملوك أرض التكرور، ولما تملك مالي عم ملكه عليهم، وصارت دولة مالي متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرضي التكرور في الشرق ... وأصله يمني»[3] كما أثنى عليه صاحب الجواهر الحسان، فقال إنه أول من ملك سنغاي من سلاطين مالي، وقد عرف بالصلاح والعدل، ولم يكن أحد من الملوك الذين سبقوه أو الذين تولوا بعده في مرتبته[4] .

وأورد ابن بطوطة بعض مآثره، فذكر بأن السلطان منسا موسى، عرف بالعطف والسخاء، والكرم، وتبجيل العلماء البيضان، وجزل العطايا لهم، وقد منح أبا إسحاق الساحلي مبلغًا ضخمًا، قدّر بأربعة آلاف مثقال. ومن شمائله أنه لا ينسى من قدم له يد المعونة في صغره، وهذا ما حدا به أن منح ابن شيخ اللبن سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخدماً، وأوصاه بالتردد عليه باستمرار[5] .

وجرى السلطان منسا موسى منذ توليه على عادة أسلافه في توسيع رقعة بلاده، فاستولى على ما تبقى من أرض غانا وعلى إقليم (زاغا)[6] .

كما أورد حسن إبراهيم حسن، ونقل عنه الشيخ الأمين عوض الله أن السلطان منسا موسى سيطر على خمسة أقاليم، كانت خارج مناطق دائرة حكمه !

---

(1) ابن خلدون المصدر السابق ح 6 ص200.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص7.

(3) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 11.

(4) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 6.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق ص 690.

(6) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 2.

من بينها إقليم مالي الذي يتوسط المملكة، وإقليم صوصو، ويقع إلى الغرب من مالي، ومن خلال المعطيات، استبعد هذه المعلومة التي اعتبرها تفخيمًا للموضوع فقط لعدة أسباب، منها :

1- أن الملك سنـدياتا كيتـا كان جهـاده الأول طـرد الصوصـو، وانتزاع الحكـم منهم وضم إقليمهم، وفعلاً استطاع أن يحقق ذلك، وسار ابنه منسا ولي على النهج نفسه، على ما تبقى من الأقاليم المنفصلة .

2 - إقليم مالي هو الإقليم الذي انطلق منه سندياتا كيتا، وكوَّن به مملكة مالي الإسلامية، فكيف يبقى هذا الإقليم لفترة منسا موسى خارج نطاق حكم مالي؟ الأمر الذي قد يستبعده العقل .

لقد استطاع هذا الرجل السيطرة على مقاليد الأمور مجتمعة، بأن أخذ زعماء سنغاي، اللذين كانا يشكلان نوعاً من الخطورة، رهائن في قصره، وهما : علي كلن، وسلمن نار، والعادة عند ملوك السودان بأنهم يأخـذون أبناء خصومهـم ويربونهم في قصورهم، فمنهم من يرجع بعد مدة، ومنهم من يبقى في خدمة الملك إلى أن يفارق الحياة، وبذلك يضمن ولاء سنغاى لملكه[1].

وبعد أن وطد أركان حكمه عزم على الحج، وهو ماتحدث عنه عدد من المؤرخين، مبرزين هذه الرحلة والأبهة، التي كانت عليها؛ الأمر الذي يقتضي التحدث عنها بشيء من الإيجاز.

أشهر ملوكها ورحلته للحـج :

قام السلطان منسا موسى برحلة إلى الحج عام 725 هـ / 1324 م[2]، بعد أن استغرق التجهيز لها مدة خمس سنوات. وتضاربت آراء المؤرخين في كمية الذهب

(1) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، ورقة 5، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص7.

(2) الهادي المبروك الدالي، العلاقات بين ملكة مالي وأحد المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق، ص34 .

التي حملها معه وعدد العبيد الذين رافقوه؛ فمنهم من ذهب إلى حد القول : بأن أول رأس قافلته بتنبكت، وهو لازال بداره في مل[1] .

أما عن عدد العبيد. . فقد قال عنه صاحب الجواهر الحسان بأنه : «حج إلى البيت الحرام، وكان ذلك في أوائل القرن الثامن في موكب عظيم وجماعته كثيرون، وكان عدد الجند الذين يتبعونه ستين ألف رجل، ويسعى بين يديه؛ إذ ركب خمسمائة عبد، وفي يد كل واحد منهم عصا من الذهب، في كل منها خمسمائة مثقال ذهب !»[2].

ومنهم من ذهب إلى أن عدد عبيده سبعمائة ألف، وحمل أربعين بغلة من الذهب، ومنهم من قال كان يتبعه سبعمائة ألف رجل وخمسائة عبد، وبيد كل واحد منهم عصا من الذهب تزن كل عصا خمسمائة مثقال[3].

وأورد ابن خلدون معلومات عن رحلة حج السلطان منسا موسى، تحكي الأبهة بأن قال : كان معه مائة حمل من التبر، في كل حمل ثلاثة قناطير، وجاء في مكان آخر من سرده لأحداث الرحلة بأن ما حمله ثمانون حملاً من التبر في كل حملٍ ثلاثة قناطير .

وأمام هذه الآراء التي تصور عدد الرجال الذين رافقوا السلطان وكمية الذهب، التي حملوها معهم، علينا أن نطرح عدة تساؤلات:

1 - ما الذي يكفي هذا العدد الهائل من البشر، الذي رأسه في تنبكت وقاعدته عند ملك مل من مركوب وغذاء وماء وكساء، طوال هذه الرحلة الشاقة والطويلة، والتي تقدر بحوالي خمسة عشر ألف كيلو متر تقريباً؟

2- إن المسافة بين مل قاعدة المملكة ومدينة تنبكت، ألف وثلاثمائة كلم، قطعتها

(1) محمد كعت، المصدر السابق ص33

(2) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 5

(3) عبد الرحمن السعدي المصدر السابق ص7، وبوفيل الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب، المرجع السابق ص117 .

سيارتي في ثلاثة أيام. فكيف له أن يكون رأس قافلته بتنبكت وهو بداره في مل ؟ وافترض جدلاً التصديق بهذا العدد الهائل من البشر، الذي رافقه في رحلته، ولو وضعناهم في قافلة منتظمة، فإنهم لا يصلون حتى إلى مدينة سيقو، التي تبعد عن قاعدة مالي بحوالي مائتين وخمسين كلم.

3- إن كمية الذهب التي حملت في هذه الرحلة، تعتبر نهكاً للاقتصاد الوطني، فكيف لرجل مثل الملك منسا موسى، أن ينهك خزينة بلاده، التي هو في أمس الحاجة إليها لبناء جيش قوي يفتح به الأمصار، ويرد به كيد الطامعين؟ وما عرف عن الملك منسا موسى إلا الورع والصلاح وسداد الرأي. فمن أين له أن يفعل مثل هذه الأفعال؟ ومن وجهة نظري، أن هذه الهالة التي عبر عنها عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين مردها إلى الخيال الزائد، الذي ينسج على الأبطال دائمًا من قبل رعيتهم، والدليل على ذلك قصة زوجة السلطان منسا موسى، وطلبها من زوجها أن يصنع لها بحيرة تستحم فيها، وهي في أعماق الصحراء، ولبي زوجها طلبها، وأمر رئيس العبيد وعبيده، فصنعوا لها بحيرة، وأفرغوا فيها كافة قرب الماء واستحمت فيها!.

هل يعقل أن يستنفذ السلطان منسا موسى القائد المحنك كمية الماء، التي يحملها معه، وهو في أعماق الصحراء، في سبيل تلبية طلب زوجته؟

هذه الأمور تكشف بجلاء الخيال الواسع الذي دُرجت عليه الرواية الشفوية. ولكن في الوقت نفسه لا ننكر الثراء، الذي كانت عليه مملكة مالي الإسلامية.

أما الطريق الذي سلك إلى الأراضي المقدسة.. فقد أورد صاحب الجواهر الحسان والسعدي أنه سلك طريق ولاته مروراً بتوات، وقد تخلف جمعٌ من رجاله، لمرض أصابهم في أرجلهم في مدينة (توات)[1]، وبذلك سميت هذه المدينة على تلك العلة[2].

(1)- مدينة توات قبل قيام مملكة مالي الإسلامية.

(2) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 6 وعبد الرحمن السعدى، المصدر السابق ص7.

وعند وصوله إلى القاهرة، استقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً. وكان حاكم مصر في تلك الفترة محمد بن قلاوون، الذي أوعز إلى العباس أحمد بن علي الخاقاني بمرافقته، وقد أحاطه برعاية خاصة، وأنزله قصراً عند القرافة الكبرى، بل أهداه له وأجزل حاكم مصر العطايا، من حرير وخيل وإبل وتموين إلى ضيفه المالي، وفي المقابل منح السلطان المالي إلى حاكم مصر بعيراً محملاً ذهباً قدر بحوالي خمسة آلاف مثقال، إضافة لذلك فقد وزع سلطان مالي الذهب والعطايا على من قدم له خدمة بمن فيهم موظفو الدولة المصرية[1].

مكث السلطان منسا موسى في مصر، وعندما حان موعد الحج ذهب إلى الأراضي المقدسة وأدى فريضة الحج، وتصدق بمبلغ قدر بعشرين ألف من الذهب، ورافقه في رحلة العودة أربعة من الموالي، والمهندس أبو إسحاق الساحلي، الذي عرض خدماته المعمارية على السلطان منسا موسى. وفي طريق العودة ضل ركب السلطان المالي في الطريق بين الحجاز ومصر، الأمر الذي جعل جزءاً كبيراً من الزاد ينفذ من ركبه وعند وصوله لمصر، أصبح ما بيده من الزاد قليلاً لايكفيه لمواصلة رحلته الى بلاده، فباع القصر، واقترض من سراج الدين، أحد تجار مصر الكبار خمسين ألف دينار[2].

كما سلك السلطان المالي طريق العودة عبر الأراضي الليبية، حيث مر على مدينة غدامس، واصطحب معه المهندس الليبي عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي، الذي طور بناء جامعة سنكري، وقصره مع المهندس أبي إسحاق الساحلي، وأصبح فيما بعد مستشاره[3].

---

(1) ابن خلدون المصدر السابق، ج 6 ص200، والقلقشندى، المصدر السابق، ج 5 ص 295، والعمرى، المصدر السابق ص ص 70-71.

(2) -ابن خلدون المصدر السابق ج6 ص200، والقلقشندى، المرجع السابق، ج 5 ص295، وابن بطوطة المصدر السابق، ص 694، وعبد الرحمن السعدى المصدر السابق ص 7.

(3) ابن خلدون المصدر السابق ج6 ص ص200 -201، ونعيم قداح، أفريقيا في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص 54.

وعند رجوعه تناهى إلى مسامعه نبأ استقلال إقليم سنغاي عن حاضرة الدولة، فغير طريق مسيره واتجه صوب جاو حاضرة الإقليم السابق. ولما علم ملك الإقليم بمقدمه، استقبله استقبالاً يليق بمقامه العالي، وقدم له فروض الطاعة والولاء، كما مر ركب السلطان بمدينة تنبكت ذات الحضارة الزاهرة، وقد شيد بها المسجد الكبير وقصراً له ومساجد أخرى[1].

بلغت البلاد في عهده عنفوان مجدها وقوتها، باستيلاء قواته على حاضرة سنغاي، جاو، وتنبكت، التي تمثل عمقاً حضارياً متميزاً. ووجه جيوشه صوب الجنوب، مخترقاً الفيافى إلى فو تاجا لون، على حدود نيجيريا الحالية، ومن بعد تحرك إلى مناجم الملح في منطقة تغازا، والنحاس في بلدة تكدا، ووصلت سيطرته إلى المحيط الأطلسي[2]. إلا أن يد المنية سارعت بأخذه، وهو يبنى المملكة لبنة لبنة عام 738 هـ/ 1337م، بعد حكم دام خمس وعشرين سنة[3].

تولى بعده ابنه مغا أمر البلاد من 738-742هـ/1337-1341م، وكان ضعيف الشخصية، حدثت في عهده اضطرابات وقلاقل[4]، وانتشل البلاد من الفوضى عمه منسا سليمان من 742-762/1341-1360م، الذي عمل على إصلاح مافسد، بأن شجع العلم والعلماء، وجلب الفقهاء من مذهب الإمام مالك

(1) - محمود بغيع، جواهر الإحسان في دعوة الإخوان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقة 1-2 وعبد الرحمن زكى، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق ص 109

(2) - مجهول، فقهاء تنبكت، مخطوط، مكتبة الباحث، ورقة 1-2، وأحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج 6 ص 246.

(3) - وأحمد بابير الأروانى، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 22، ابن خلدون المصدر السابق، ج 6 ص 200 .

(4) - محمود بغيع، جواهر الإحسان في دعوة الإخوان، مخطوط ورقة 5 .

Levtzion, N. , The Early States of the Western Sudan to 1500, History of West Africa, ed Ajayi J.F.A., Vol I Great Britain, 1976, P : 137.

للمملكة، وشيد المدارس والمساجد، وانتهج جانب العدل في حكمه وعطفه على رعيته، وعلى الغرباء. وقد زار ابن بطوطة مالي في عهده، وذكر شيئاً عن عدله بأن تاجرًا من مسوفه يسمى أبا حفص، وقع عليه ظلم من حاكم ولاته، التي كانت تابعة لمملكة مالي الإسلامية، فشكاه إلى الملك منسا سليمان على أنه استلف منه ستمائة مثقال، ولم يدفع له إلا مائة مثقال، فما كان من الملك المالي إلا أن أوكل أمرهما إلى القاضي، وعندما ثبتت الإدانة على حاكم ولاته، أخذ منه حق التاجر المسوفي وعُزل حاكم الولاية من طرف السلطان منسا سليمان.

وهو الذي أكرم ابن بطوطة ومنحه ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثاً، وأعطاه مائة مثقال عندما غادر مالي. وهذا يدل على احترام الملك منسا سليمان للغرباء وعطفه عليهم[1].

قام السلطان منسا سليمان برحلة إلى الحج بعد أن وطد أركان بلاده، وقد عرف لدى أهالي مصر بملك التكرور، وعلق موسى بن أحمد السعدي على هذه التسمية بأن السلطان المالي لو سمعها لاستهجنها، ويفضل أن يقال له صاحب مالي[2].

بعد هذا الإصلاح السياسي والثقافي، الذي قدمه السلطان منسا سليمان، لم تمهله الأيام لمزيد من رفع مقام دولته. فما هي إلا تسع عشرة سنة قضاها في الحكم حتى توفي عام 761 هـ 1359م، وتولى بعده ابنه (قنبتا) الذي لم تكن له شخصية الحاكم. وبعد تسعة أشهر مكثها في الحكم لم يخلف أي أعمال تذكر. وخلفه في الحكم الملك (ماري جاطة الثاني) 762-776/1360- 1374م، وعرف عنه بأنه الملك الأهوج المبذر، الذي لايعرف للحكمة طريقاً، فقد أنهك

(1) ابن بطوطة المصدر السابق، ص 688 العمرى، المصدر السابق ص 69، وعبد الرحمن زكى، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، المرجع السابق ص 113، وأحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج6 ص 246.

(2) موسى بن أحمد السعدى، مخطوط ورقة 170 .

خزانة بلاده بمصروفاته الزائدة على ملذاته طيلة أربع عشرة سنة، فقد باع حجر الذهب غير معالج يزن عشرين قنطاراً، لتجار مصر بثمن زهيد. وقد نعته ابن خلدون بقوله : " وكان أشر والٍ عليهم بما سامهم من النكال والعسف وإفساد الحرم "[1].

وفي ظل هذه الظروف المؤلمة من تاريخ المملكة، توفي مارى جاطة الثاني بمرض النوم، الذي تمكن منه، وكان ذلك عام776 هـ/1374م. فتولى ملوك أضعف منه بعده كان أولهم ابنه موسى الثاني 776-789هـ 1374/-1387م، الذي كان ضعيف الشخصية أمام وزيره ماري جاطة، الذي صب جل اهتماماته في توسيع رقعة البلاد على حساب مواطنيه، الذين يعانون الفاقة بسبب ندرة الأمطار وكساد التجارة، ومرد ذلك للفوضى التي اجتاحت البلاد. وماهي إلا ثلاث عشرة سنة حتى توفي تاركاً البلاد لأخيه منسا مغا، الذي قتل بعد سنة من توليه؛ بسبب الفتن التي أصبحت عليها البلاد.

تولى أمر البلاد بعد منسا مغا صندكي زوج أم موسى 791-793هـ/ 1388-1390م، وكان هو الآخر شخصية ضعيفة لم يقدر لها النجاح، ووصلت البلاد في عهده إلى قمة الفوضى[2].

نهض بأمر الدولة بعد صندكي رجل من أسرة كيتا، كان في المنفى، يدعى محمود، انتزع عرش البلاد وهي في قمة الفوضى والمهانة، وعلى الرغم من أن معلوماتنا قليلة عنه، إلا أنه جاء لإنقاذ المملكة مما لحقها من جهل وتخلف، وعلى ما يبدو أنه لم يعمر طويلاً. جاء بعده ثلاثة ملوك ضعاف، لم يكن لهم دور يذكر في التاريخ ؛ كان أولهم ملك يدعى محمد، عاش في أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادي؛ أي حوالى 886هـ/ 1481م[3] واستمر قابعاً في دويلته، التي أصبحت منذ عام 869هـ/ 1464م تابعة

(1) ابن خلدون، المصدر السابق ج 6، ص ص 201 -202،

(2) نفسه ص 202 والقلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 298.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق ج2، ص 202، والقلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص298.

لإمبراطورية سنغاي التي أسسها الملك سني علي، وسوف يرد ذلك بتفصيل في الفصل الأول.

كانت هذه المملكة تتمتع بنهضة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية في أغلب فتراتها، أي من عام 636- 894هـ / 1238-1488م .

التنظيم السياسى والاقتصادى والثقافى :

تمتعت المملكة برقعة ترابية شاسعة، ونظام حكم ملكي وراثي في الأغلب الأعم. وكان نظام تولي عرش المملكة لايقتصر على أبناء الملك، بل حتى إخوة الملك قد يكون لهم نصيب في العرش ومنسا سليمان خير دليل على ذلك. وقد يولي الملك أبناء الأخت، أو بنات البنت، فهو أمر مألوف عندهم، وما يبرهن على ذلك تولي أبي بكر عام 1275/674م أمر البلاد، وهو ينتسب إلى ماري جاطة على أنه ابن بنته[1]، والشواهد على ذلك كثيرة.

لقد أكد القلقشندى ذلك بقوله : "على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت"[2] وأورد ابن بطوطة معلومات في هذا المضمار، بأنه رأى في مدينة تكدا أبناء أخت سلطانها يرثونه في الحكم، وفي مدينة ولاته التابعة لمملكة مالي الإسلامية "لايرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه"[3].

وقد ينفلت الأمر من الأسرة الحاكمة في المملكة، ويصل الحكم إلى يد رجل خارج الدائرة، وهذا ما نجده متمثلاً في ساكوره، الذي لاينتسب إلى الأسرة المالكة، بل هو مولى من الموالي، انتزع عرش البلاد وقد سبق ذكر ذلك.

كان نمط الحكم في مملكة مالي الإسلامية إسلامياً في الأغلب الأعم، وقد

---

(1) محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان بمجمع تاريخ بلاد السودان مخطوط ورقة 20، وفاي منصور علي، دولة مالي الإسلامية في عصرها الذهبي على عهد السلطان منسا موسى، رسالة ماجستير، جامعة الازهر، كلية اللغة العربية، 1984م، لم تنشر ورقة 120 - 121.

(2) القلشندي، المصدر السابق ج5 ص194.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق ص 698.

يمارس حكامها حكماً استبدادياً في بعض الأحيان، وقد تصل هيبة ملوك مالي عند رعيتهم إلى درجة التقديس فيحلفون بملوكهم يقولون : "منسا سليمان كي" .

لقد انتهجت مملكة مالي الإسلامية في نظام حكمها نهج بعض الممالك الاسلامية المعاصرة لها، وكان نظام الحكم تسند فيه السلطة إلى الملك بالدرجة الأولى . ويسير دفة الحكم مع الملك ونائبه، مجلس الوزراء وموظفون يسيرون دواوين المملكة، وقد يصدر الملك أوامره شفهياً أو يأمر صاحب الديوان بكتابتها باللغة العربية أو الخط المغربي[1]، ويعقد اجتماعات دورية، في فناء قصره للمشورة ومتابعة توجيهاته السابقة إلى حكام الأقاليم في المملكة والتأكد من تنفيذه[2].

ويأتي في الأهمية بعد الملك نائبه ويطلق عليه (قنجا)[3]، وعادة ما يكون ابن الملك من يتولى هذه الوظيفة وينوب عن الملك، وإذا خرج الملك خارج البلاد يترك أمر تسيير الدولة إلى ابنه، وهذا ما فعله منسا موسى عند ذهابه في رحلة الحج؛ حيث ترك ابنه محمد نائباً عنه[4].

أما الوزارات فعادة ما تسند إلى عرب الشمال الأفريقي المتواجدين هناك؛ فقد تولوا الخزانة، والقضاء، والترجمة، وكتاب الملك، والاستشارة . وقد أسند الملك منسا موسى منصب الاستشارة إلى المهندس الليبي عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي . ومن الوزارات الرئيسية: وزارة الثقافة، والأملاك، وشؤون مياه نهر النيجر، والملاحة النهرية، والصيد، والغابات، والجزية[5].

(1) القلقشندي المصدر السابق 52 ص 298 والعمري، المصدر السابق ص ص 67 - 74، ومجهول «إمبراطوريات السودان الغربي»، مجلة الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة: معهد البحوث والدرسات الأفريقية 1972م ع الأول ص 21.

(2) القلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 301، والهادي الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، المرجع السابق ص 63.

(3) ابن بطوطة المصدر السابق، ج 5 ص 301، نفسه 127.

(4) القلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 298 وإبراهيم طرخان، دولة مالى الإسلامية، المرجع السابق 128.

(5) محمود بغيع، جواهر الإحسان في دعوة الإخوان، مخطوط، ورقة 1-2، وآدم عبد الله الآلوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق ص 54.

وكانت المملكة مقسمة إلى عدد من الأقاليم وهي غانا، وزافون، وترنكا وتكرور، وسنغانة، وبانبغو وزار فيرطا، وتنبرا، ودرمودا، وزاغا وكابر ويراغوري وكوكو وإقليم مالي[1].

وأورد صاحب الجواهر الحسان "بأن أهل مالى سودان في الأصل ... وفيها ثلاث مناطق كل وبندُكُ وسبرُدكُ، وفي كل منطقة من المناطق الثلاث اثنا عشر سلطانا"[2].

أما سلاطين (كل) التي تجاور مدينة (جنى) ثمانية، وهي: ورُن كُمي ونتركُبي وكمي لمي وفدكُ كي وكركُ كي وكوكُي وفرماكي وزن كي.

وأربعة من هؤلاء السلاطين يحكمون وراء النهر من جهة الشمال.

أولهم كُوكركُي من أهل زاغ وقدم أهله من المغرب ويارِكُى وسن كُى وسام كي وسنبنب. أما رئيسهم فيدعى فرن وهو الذي يتقدمهم عند سلطان مالي، إذا اجتمعوا للمشورة[3].

أما سلاطين بنْدكِ فكلهم يقطنون وراء النهر من جهة اليمين، وهم كوكُى وكعن كي وسْم كي، وتركُي وداع كُي وأم كُي وتعب كُي[4].

وقد اعتذر صاحب الجواهر الحسان بأنه نسى خمسة منهم ؛ بمعنى أن مجموعهم أحد عشر سلطاناً.

ومن خلال استقراء لأسمائهم.. فإننا نجد أن كل سلطان يلقب بكي وكي سلطان. وليس كما أورد السعدى بمعنى نائب السلطان، إلا إذا قصد بذلك سلطان مالي.

---

(1) ابن خلدون المصدر السابق، ج 6 ص ص 199-200 والقلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 286، والعمري، المصدر السابق ص 60.

(2) -أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 8-9.

(3) -نفسه والورقة.

(4) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 8-9 .

والمعلومات السابقة حول أسماء القبائل والسلاطين، لم تتطرق لها المصادر القديمة، فهذه المخطوطة كشفت لنا عن جوانب خفية، أعطت لنا بعداً جديداً، يضاف إلى تاريخ منطقة السودان الغربي.

أما عن التنظيم الإداري، والمصطلحات التي يطلقونها على إدراتهم وأقاليمهم، فتعبير القرية يطلقون عليه اسم الدجوDugu، وتعتبر نواة الوحدة الإدارية، وتأتي بعدها في المرتبة الثانية المدينة، وهي تتألف من مجموعة قرى، ويطلق عليها الكافو Kafo، كما أطلق على مجموعة من المدن، الكافوات اسم الديامانا بمعنى الولاية أو المملكة. وعلى ما يبدو أن هذا التنظيم تأثر بالنظام القبلي، الذي كانت عليه قبائل الماندنجو المؤسس الحقيقي لمملكة مالى الإسلامية[1].

كما يطلق لقب مانسا أو ماسا على حكام الولايات ورؤساء القرى.

وكان حاكم الولاية يدعى كُي Koi، بمعنى ملك تابع لسلطان مالي، وهو يعتبر أرفع لقب، يلقب به حكام الولايات في المملكة[2].

أما الذي يتحكم في أمور الولاية، فيأتي الفربةFarba بعد الكى مباشرة، وقد يحكم نيابة عنه. وهذا ما أكده ابن بطوطة الذي أفاد أن الوزير كان يسير فى إحدى القرى الواقعة على نهر النيجر في فترة السلطان موسى[3].

وقد أورد عبد الرحمن السعدي بأن ستة وثلاثين ملكاً حملوا لقب كي[4].

ومن جوانب النهضة السياسية، التي شهدتها مملكة مالي الإسلامية، توطيد علاقاتها مع جيرانها، وخاصة المغرب الأقصى، فقد ارتبطت بعلاقات وطيدة مع المغرب، وتبادلت الوفود، ورسائل المؤازرة، وخاصة في عهد السلطان المرينى

---

(1) -عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 9 ، Joseph. Ki-Zerbo op cit : P : 160

(2) -نفسه، ص 8 وفاي منصور علي، المرجع السابق، ورقة 125-126.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق ص 692.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 10.

أبو الحسن بن عثمان المرينى 732-752هـ/ 1331-1351م ؛ ونظيره السلطان منسا موسى سلطان مالي، وتوج ذلك عندما انتصر أبو الحسن المريني على تلمسان، وضمها إليه عام 735هـ/ 1334م[1]. فما كان من السلطان منسا موسى إلا أن أرسل وفد تهنئة ومؤازرة برئاسة فرافقيس إلى السلطان المريني، واستقبل الوفد بكل حفاوة وتكريم، وفي فترة تواجد الوفد المالي في المغرب حمل نبأ وفاة السلطان منسا موسى إلى المغرب، فحزن السلطان المريني لفقد صديق حميم، وبعث وفداً برئاسة كاتب الديوان أبي طالب ابن محمد بن أبى مدين، محملا بأصناف الهدايا من خزائن دار السلطان. واستقبل الوفد من طرف السلطان منسا سليمان استقبالاً يليق بمقامه، وتقبل منهم التعازي وهدايا السلطان المريني، وحفهم برعاية خاصة[2].

ودعماً لروابط الأخوة والمحبة، أرسل السلطان المالي مع وفد التعزية عند رجوعه إلى المغرب الأقصى سفارة برئاسة الحاج الونجرتي إلى السلطان المغربي أبي الحسن المريني، يؤكد له فيها استمرار العلاقات الحميمة بين البلدين. وعلى الرغم من الظروف السيئة التي تعرضت لها مملكة مالي بعد وفاة السلطان منسا سليمان، إلا أن السلطان منسا زاطة واصل مدَّ أواصر الصداقة مع المغرب الأقصى، بأن أرسل هدية وهي عبارة عن زرافة، عندما تولى أمر البلاد السلطان أبو سالم المرينى، عام 762 هـ/ 1360م، وقد قابل أبو سالم الوفد المالي بترحيب بالغ، وكان حاضراً هذا الجمع ابن خلدون[3] أما عن تنصيب الملك في عهد مالي وسنغاي، فسيرد مفصلاً في الفصل القادم.

(1) - الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 124-125-126.

(2) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ص 266 والناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 151-152.

(3) - محمد السالك بن خيي التنواجيوي، فوائد من غابر الأخبار في تاريخ الدول وأصول الأنساب، مخطوط ورقة 39 وابن خلدون المصدر السابق، ج 7 ص 300 وعبد الهادي التازي الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، الرباط : مطبعة المعارف الجديدة 1973 ص 77.

وكان لـمملكة مالي مؤسسات تعمل على تسيير أمور المملكة.

يأتى في مقدمتها نظام القضاء الذي يعتبر مهمة القضاء مهمة رفيعة وصعبة في آن واحـد، وتحت إشراف السلطان، ومن يتولى هذا المنصب لابد أن تتوفر فيه عدة شروط، منها: النزاهة والصدق والأمانة، وحسن تدبير الرأي، والورع، ويطلق على القاضي لقب بانفارفم[1].

والقضاة نوعان : قاضى العاصمة، وهو القاضي الأعلى، وقضاة آخرون وهم يمارسون مهمة القضاء خارج العاصمة، وقاضي العاصمة أرفع من قرينه، ويعتبر مستشار الملك. ويختص القاضي بمصافحة الملك، ويتصدر الحاضرين في المناسبات ويصدق السلطان القاضي، ومن مهام القاضي الفصل في المشاكل، التي قد تحدث بين سكان المملكة، وكذلك المشاكل التي تحدث بين ولاة الأقاليم.

وقد أفادنا ابن بطوطة عند زيارته لمدينة تكدا قائلاً : "وفي أيام إقامتي بهـا، توجـه القاضي أبـو إبراهيـم والخطيـب محمد والمـدرس أبو حفـص والشيـخ سعيـد بن علي إلى سلطان تكدا وهو يسمى إزار، وكان على مسيـرة يـوم منها، وقعت بينـه وبين التكريري، وهو من سلاطين العرب المغاربة أيضًا منازعة فذهبوا إليه للإصلاح بينهما "[2].

ومن خلال النص السابق، تتضح قيمة القاضي، وما يتمتع به من صلاحيات على حكام الولايات، الأمر الذي يوضح الدرجة التي كانت عليها العدالة، إضافة إلى ذلك قيمة المدرس، والخطيب والشيوخ، في نفوس أبناء وحكام مالي، كما يؤكد ذلك احترام أبناء ملوك مالي لأهل العلم.

ويقف أمام القاضي الحاكم والرجل العادي على السواء، وهذا ما أورده لنا ابن بطوطة، من أن تاجراً من تجار ولاته، اشتكى لدى السلطان منسا سليمان من

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق ص 35.

(2) - ابن بطوطة، المصدر السابق ص 686-698 ومحمود كعت المصدر السابق ص 35، عبد الله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1962 ص 25.

حاكم إحدى ولاياته بأنه أخذ منه ستمائة مثقال، وأراد أن يرد له مائة مثقال، فما كان من السلطان المالي إلا أن أرسل إلى القاضي، وأمره بالتحقيق في الموضوع، وعندما تبين صحة الدعوة التي رفعها التاجر الولاتي، أمر السلطان منسا سليمان برد الأموال للتاجر من حاكم الولاية وعزل حاكم ولاته[1].

وهذا ينم عن مكانة القاضي وعدل السلطان منسا سليمان.

كما أن نظام المحاكم في مملكة مالي الإسلامية يتكون من محكمتين :

الأولى المحكمة الملكية : يرأسها الملك وتختص في جرائم الخيانة العظمى.

والثانية محكمة القاضي : ويتم تعيين القاضي من طرف الملك، ويوكل إليها النظر في الجرائم العامة، والمنازعات بين الأهالي.

أما عن إعلان الحكم، فيتم بعد أن يفصل فيه القاضي، إذا كان الحكم يخص بعض أفراد المجتمع، وقرار المحكمة يعلن أمام الحاضرين، أما العقوبة فحسب الجرم المقترف، فهي تتراوح مابين السجن، والجلد والموت أو مصادرة الأملاك[2]. أما الطريقة المتبعة في استخلاص المعلومات من المتهم.. فإنها لاتستند إلى احترام، فوسيلة العنف هي المتبعة في ذلك، وقد يكون من وجهت له التهمة بريئًا إلا أنه يذهب ضحية التعذيب[3].

وقد اتخذت مملكة مالي الإسلامية منذ قيامها على عاتقها، بناء قوة ضاربة في منطقة السودان الغربي يحسب حسابها، فاجتهد ملوكها منذ عهد سندياتا وإلى

---

(1) - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5 ص 299، وعبد القادر زبادية، مملكة سنغاى، المرجع السابق ص 23.

(2) - محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد : دار الرشيد للنشر 1982 ص 47 وعبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المرجع السابق ص 33.

(3) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 7-8، وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 133.

عهد السلطان منسا سليمان في تكوين جيش قوي بلغ عظمته، في عهد السلطان منسا موسى. وقد أورد القلقشندي معلومات عن قوة الجيش المالي في قوله : "مقدار عسكره مائة ألف نفر، عشرة آلاف فارس، فرسان خيالة وسائرهم، رجالة لاخيل ولامركب"[1].

وتفيدنا المعلومة السابقة بضخامة الجيش وتقسيماته ومهامه، وكان الجيش في مملكة مالي يتألف من عناصر قبائل الماندنجو، والعرب المتوطنين هناك، وفروع أخرى. ويشرف الملك بنفسه على إعداد الخطط العسكرية، وفي أغلب الأحيان يقود الجيوش بنفسه، ويحافظ على أمن البلاد من أي اعتداء خارجي أو داخلي، ويمتاز قادة الجيش في المملكة، باحترام خاص لدى الملك والرعية إلى درجة وصول بعضهم إلى السلطة، مثلما فعل ساكورة 684-700هـ/ 1285-1300م[2].

وقد عرف عن الجيش المالي بأنه جيش منظم فكان مقسماً إلى قسمين :

القسم الأول : جيش الشمال، ويلقب قائده باسم (مارن سور)، ويعني هذا اللقب قائد المسلمين، ومكانه مدينة ديارا، في إقليم كانياجا.

القسم الثاني : جيش الجنوب، ويقطن في مقاطعة سانجاران، ويدعى قائده ديوان صندكي[3].

---

(1) - ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686-698 ، ومحمود كعت المصدر السابق ص 35، عبد الله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1962 ص 25.

(2) - ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686-698 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص ص 110-117 .

(3) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل اروان، مخطوط، مكتبة احمد سالم الشود، دون تصنيف، ورقة 80 وفاي منصور المرجع السابق ورقة 130.

وعلى ما يبدو، فإن هذا التقسيم له ما يبرره؛ فجيش الشمال يتكون من المسلمين، وله عاداته وأخلاقياته في السلم والحرب، وخطط مستمدة من تاريخ الإسلام. وجيش الجنوب، وهو الذي يتألف عادة من قبائل، لم تدخل بعد في الإسلام ولها وضعها وأنماط حياتها.

وينم هذا التقسيم عن القيادات الحكيمة، وتبحر ملوكها في علم النفس العسكري، بحيث لم يدمج الجيش مع بعضه نظراً لاختلاف عقائده واتجاهاته، الأمر الذي ينعكس على وضعه العسكري، وإلى يومنا هذا يراعى تجانس الجيوش.

كانت أسلحة الجيش المالي تتكون من الحراب، والسيوف، والعصي، والنشاب، والرماح، والدبابيس المصنوعة من شجر الأبنوس، فضلاً عن الدروع التي تصنع من جلد حيوان اللمط، وهو قوي يقاوم وخزات الرماح، وطعنات السيوف، ورشقات النشاب[1].

ولأهل مالي طقوس ومراسيم معينة، عند تنصيب الفارس، تعني أنه وصل إلى عمر الرجولة، ويشرف حاكم الإقليم، وهو ينوب عن السلطان. ويؤخذ الفارس المنصَّب ويوضع على درع خصص لهذا الغرض، ثم بعد ذلك يؤخذ الدرع الذي جلس عليه، ويوضع على روؤس الجنود إعلاماً بدخول دم جديد إلى الجيش[2]. هذه الطقوس درجت عليها قبائل الطوارق، في تنصيب الفتى، الذي وصل إلى الحكم، وتكاد تكون المراسيم نفسها، التي تتبع في مملكة مالي الإسلامية.

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686 - 698 ومحمود كعب المصدر السابق ص 35، عبد الله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت المطبعة الكاثوليكية 1962 ص 25.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686 - 698 ونعيم قداح، أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام، المرجع السابق، ص ص 110 - 117.

والسؤال الذي يطرح الآن هو :

من الذي تأثر بالآخر ؟ .

لقد وصلت هذه المملكة إلى درجة من الرفعة والتنظيم المحكم، وكانت لها راية تمثل هيبة الدولة، وهي عبارة عن قطعة من القماش الأصفر في أرض حمراء تنتشر عليه الأعلام من كافة جهاته[1]. ويرمز هذا الشعار إلى الكفاح المسلح الذي خاضه أبناء الشعب ضد الطامعين، وأما الأعلام التي تري تحيط بها فهي أعلام الانتصارات، التي حققتها البلاد في كافة الاتجاهات، ولذلك أحيطت الراية من جميع جوانبها بالأعلام .

وقد تزامن الازدهار السياسي مع الاقتصادي، وكان مرده إلى الاستقرار الأمني الذي شهدته البلاد؛ مما شجع التجار من الشمال الأفريقي على ارتياد تلك المناطق في حركة دؤوبة، ومن جهة أخرى سيطرت المملكة على مقدراتها الاقتصادية، مثل مناجم الملح في تغازا، والذهب في ونقاره، والنحاس في تكدا، التي وفرت مردوداً اقتصادياً، أدى دوراً في ازدهار المنطقة .

وكان عماد الاقتصاد المالي، التجارة التي ربطت بينها وبين مدن الشمال الأفريقي، عبر شبكة من الطرق التجارية، وهي :

1- طريق من المغرب الأقصى يمر بسجلماسة وتوات إلى مدينة تنبكت .

2- طريق من جهة الغرب، يبدأ من مراكش، ويتجه إلى المنحنى الشمالي من النيجر .

3- طريق غانا - موجادور - فاس عن طريق أودغست .

---

(1) مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط، مكتبة أحمد سالم الشود، دون تصنيف ورقة 80، وفاي منصور المرجع السابق ورقة 130.

4- طريق تنبكت - موجادور - فاس عن طريق منجم تغازا[1].

وكانت شبكة الطرق السالفة الذكر تسير عليها قوافل التجار بين مالي ونظيراتها من الشمال الأفريقي، فارتبطت بعلاقات تجارية مع مدن ليبية في مقدمتها مدينة غدامس وطرابلس، وكانت السلع المتبادلة بين الجانبين متمثلة في القماش، والحرير، والعقيق، والملح، والجلود، والتوابل، والكولا[2].

كما ارتبطت بعض المدن المغربية بعلاقات تجارية مع مالي، كان في مقدمتها سجلماسة، وفاس، ومراكش، وبلغت هذه المدن درجة من الاتصال التجاري بتسييرها لمواكب القوافل، عبر الصحراء إلى منطقة السودان الغربي، وكانت القوافل تحمل الأمتعة، والقماش، والعقيق، والحرير، والملح، وترجع محملة بالذهب والتوابل والكولا والعبيد[3].

وكان التجار يسيرون في قوافل كثيرة، تصل في بعض الأحيان إلى ألفي جمل، يحمل جزء من الإبل البضائع والجزء الآخر يحمل الماء والزاد، والباقي لا يحمل هذا ولا ذاك، بل يستخدم خزاناً للمياه فقط، ويسير مع هذه القوافل حراس مهمتهم حراسة القافلة من قطاع الطرق، وأدلاء يسيرون بها من أقصر الطرق، وفي فترة زمنية أقل، ولذلك مثلت الإبل جسر التلاقي والمحبة بين شمال الصحراء وجنوبها .

وكانت البلاد تتربع على ثروة معدنية تمثل ركيزة الاقتصاد المالي، أهمها:

---

(1) - البكري، المصدر السابق، ج 1 ص 171، وابن بطوطة المصدر السابق ص 695، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 10، والقلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 300 ومجهول، تذكرة النسيان، باريس : نشره هوداس 1966 م ص 20.

(2) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط ورقة 5-6، والهادي المبروك الدالي، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، المرجع السابق ص 71.

(3) - القلقشندي المصدر السابق، ج 5 ص 301، والعمري، المصدر السابق ص 68، وفاي منصور علي، المرجع السابق، ورقة 135.

الذهب، والملح، والنحاس، ويتركز الذهب في المناطق الجنوبية من المملكة في منطقة وانقاره، كما كان منجم بمبوك من المناجم المهمة .

وقد أفاد القلقشندي في هذا المضمار أن السلطان منسا موسى عند زيارته لمصر طلب منه استفساراً عن معدن الذهب، فقال :

إن هناك نوعاً من الذهب في فصل الربيع، ينبت في الصحراء له ورق، شبيه بورق النخل أصوله التبر، والثاني يكون على ضفاف مجاري النيجر، تحفر حفر ويستخرج منها الذهب كالحجارة والحصى، وكلاهما يطلق عليه التبر ، والأول أجود في العيار والقيمة . والنوع الثاني يكون موجوداً على طول السنة، ونبات الذهب بالبلاد يبدأ في شهر (أغشت)؛ حيث ترتفع الحرارة، ويأخذ النهر في الارتفاع والزيادة فيوجد ما هو نبات مثل النخيل، ومنه ما يوجد كالحصى في مكان النيل[1] (نهر النيجر)

إن ما ذهب إليه منسا موسى، في كيفية الحصول على الذهب بزراعته مردود على صاحبه شكلاً ومضموناً، وأعتقد أن السلطان منسا موسى لا يقول مثل هذا الكلام، على الرغم من أن الذي أورد هذه المعلومة قريب من فترته، ولكن نظراً لارتباط هذه المنطقة بالثراء الزائد، لعب فيها الخيال لعبته .

هذا من جهة . . أما من وجهة ثانية، فإن ما أورده منسا موسى حول الحصول على الذهب، ربما كان هو إبعاد الأنظار عن بلاده، خوفًا من سرقة مواردها، أو أنه يريد من ذلك عدم ذكر مواقع مناجم الذهب في بلاده، وبما أنهم ليسوا على دراية بالمناطق فقد يصدقون ذلك، وفعلاً فالقلقشندي ذكر تلك المعلومة دون أن يعلق عليها، إذاً فهو مصدق لها .

ومن المعادن المهمة معدن النحاس، وكان يستخرج من تكدا، ويباع قضباناً غليظة، ورقيقة؛ فالرقيقة يشتري بها أهالي تكدا القمح والسمن والذرة،

(1) – جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مطبعة الجبلاوي 1975 ص 20.

والغليظة يشترون بها الخدم والعبيد[1]. ويوزع النحاس من تكدا إلى باقي مناطق المملكة؛ حيث يستفاد منه في صناعة بعض أدوات البيت .

أما معدن الملح فيعتبر من المعادن الهامة في حياة السكان، وإنتاجهم منه لايكفي استهلاكهم، فيستوردون كميات كبيرة من الشمال الأفريقي؛ الأمر الذي جعل ثمنه غالياً يقدر بوزنه ذهباً، وأهم مناجم البلاد تقع شمالاً قريبة من تخوم المغرب الأقصى في تغازا وتاودني وأبوجبيل .

لقد مثلت عدة مراكز محور التجارة، بين مالي والشمال الأفريقي، فنياني، التي كانت عاصمة المملكة وبها حركة تجارية واسعة، ثم تأتي بعد ذلك مدينة جاو وتنبكت، وغيرها من المراكز الهامة، التي سيرد ذكرها بالتفصيل في الفصل الثاني.

لقد استطاع أهل مالي ضرب عملة ذهبية نقدية محلية، وهي تزن ما بين 4 - 6 غرام من الذهب، إلى جانب ذلك استعملت العملة المغربية في التعامل التجاري[2]. وبالإضافة إلى الحركة التجارية النشيطة، والثروة المعدنية الهائلة، شهدت البلاد حركة زراعية على ضفاف نهر النيجر، تمثلت في زراعة الخضروات، كالبصل، والبطيخ، كما يزرع في مدينة كوكو الفقوس العنابي، والذي وصفه ابن بطوطة بأنه لا مثيل له في الطعم، ويزرعون الملوخية، والثوم والقرعة التي تستخدم في غذائهم، وفي صنع صحونهم التي يأكلون فيها، ومازالت إلى يومنا هذا . كما يزرعون الذرة، والقمح، بكميات قليلة، ويزرعون الكرنب، والباذنجان، بكميات قليلة، ويزرعون القطن، والحنطة، إلا أنها ليست على نطاق واسع[1].

---

(1) ابو الحسن علي بن سعيد المغربي كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل المغربي، بيروت، مطبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر 1970 ص91، وابن بطوطة، المصدر السابق ص ص679ـ 680 ، والعمرى، المصدر السابق ص 62.

(2) لقد شهدت هذه الأشجار في مزرعة أحمد بوبو، بالعاصمة نيامي عام 1994.

كما تنتشر على مساحات شاسعة، من أراضي المملكة، غابات كثيفة، بها أشجار مثمرة، وغير مثمرة، وأفاد ابن بطوطة بأن قافلة كاملة تستظل بظل شجرة واحدة . ومن بين هذه الأشجار : أشجار مثمرة، أشبه بالتفاح، والمشمش، والخوخ، كما يوجد بالغابة أشجار فاكهة مثل الجميز . ولديهم أشجار[1] يستخرج من ثمارها نوع من الدقيق، يطحنونه ويستخدمونه في غذائهم، ولديهم أشجار برية، تعرف باسم تادموت، لها ثمار حلوة المذاق، وبداخل الثمرة دقيق لونه أبيض، يستخدم بعد تجفيفه بدل الحناء . كما يوجد بهذه الغابات نوع من الشجر يعرف بالزيزور، ثماره تشبه دقيق الترمس، ويوجد لديهم شجر يعرف بالفقوص، له شبه بالسفرجل؛ يستخدمونه في غذائهم .

لقد شهدت الزراعة نشاطاً كبيراً في عديد من أقاليم المملكة لما امتازت به من تربة خصبة، ومياه عذبة، وكثافة سكانية، اتجهت أغلبها لزراعة الأرض وهذا ما أكده كعت حين قال : «إن مل تشتمل على نحو أربعمائة مدينة وأرضها كثيرة الخير»[2].

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية التي كانت عليها البلاد، كانت هناك ثروة حيوانية هائلة منها الحيوانات المستأنسة والبرية، فالحيوانات المستأنسة هي التي تربى في البيوت ومنها الأغنام، والماعز، والبقر، والإبل، يستخدمون لحومها في غذائهم، وصوفها ووبرها في صناعة ملابسهم[2].

أما الحيوانات البرية، فتشمل الغزلان، والأسود، والنمور، والزرافات، وحمار الوحش، والفيلة، والجاموس البري، (وحيوان اللمط).

ومن الطيور المستأنسة الحمام، والوز، والدجاج. والطيور البرية، التي يصطادونها، وتتمثل في النعام الذي يستخدم ريشه في التبادل التجاري، كما كانت توجد في مدينة تكدا العقارب السامة.

---

(1) لقد شهدت هذه الأشجار في مزرعة أحمد بوبو، بالعاصمة نيامي عام 1994.

(2) محمود كعت، المصدر السابق ص 38

أما الحيوانات البحرية فتشمل الأسماك وفرس النهر والتماسيح الضخمة التي يصل طولها إلى عشرة أذرع، وكانوا يأخذون مرارتها السامة، ويضعونها في خزانة الملك فلربما يستخدمونها في علاج بعض الأمراض[1].

كما عرفت مملكة مالي الإسلامية ازدهاراً علمياً، وخاصة في عهد السلطان منسا موسى، وأخيه منسا سليمان، ويبرهن على هذا الازدهار، جامعة سنكرى، ومساجد تنبكت التي كانت عامرة بأرباب العلم، وما احتوته من مناهج علمية في مختلف التخصصات [1] .

درس هذه المؤلفات علماء من مالي من أمثال أحمد بابا التنبكتي، ومحمود بغيغ وغيرهم لايسعنا ذكرهم الآن، كما درس هذه المؤلفات علماء من الشمال الأفريقي، من المغرب، وليبيا ؛ فكانت كتب عياض، والونشريسي، والمقري وأحمد زَرُّوق، والخروبي، والحسن بن علي، وغيرهم تعج بهم مراكز العلم في تنبكت، وغيرها من مدن المملكة، كما ارتبطت المراكز السودانية بما يناظرها بالشمال الأفريقي، متمثلة في جامعة القرويين، التي كانت تتصدر مراكز العلم في المنطقة. وتبادلت المناهج والأساتذة معها، وأرسلت للتدريس في مملكة مالي من علماء المغرب، على سبيل المثال لا الحصر، محمد بن وانسول من مدينة سجلماسة، وفي المقابل كان هناك طلاب يدرسون من المغرب الأقصى في مالي. وبعد أن تطرقنا إلى الجانب العلمي في المجتمع المالي، نتحدث بإيجاز عن الجانب الاجتماعي.

المجتمع في مملكة مالي عبارة عن أسر، وعشائر، وقبائل، يقطنون قرى وأقاليم، يمارسون حياتهم العادية، وفق أعراف وأنماط معينة اعتادوها، وكان يهيمن عليه نظام الطبقات، ويلتزم أفراد كل طبقة بطقوس وأعراف وأنماط معينة لايخرجون عنها. وقد قسم عدد من المؤرخين المجتمع المالي إلى ثلاث طبقات، ولكن في الحقيقة يجب تقسيمه إلى أربع طبقات بما فيها طبقة العبيد.

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص 38.

وهذه الطبقات هي :

1 - **طبقة الملك وأفراد أسرته**، ولهم نظامهم الخاص بهم في العيش، وزيهم مميز. فالملك يرتدي سراويل واسعة، طولها عشرون نصفيه ؛ لايجرؤ أحد على لباس هذا الزي من الطبقات الباقية. ويركب الملك الجياد العربية الأصيلة التي تجلب له من الشمال الأفريقي، وأثمانها مرتفعة، وللملك مراسيم معينة في المناسبات والأعياد الدينية، ففي يوم العيد يخرج لأداء الصلاة، مرتدياً طيلساناً على رأسه، يقتصر لبسه عليه شخصياً. وفي الأعياد، وبعد صلاة العصر من يوم العيد يجلس السلطان على مصطبة معدة له، ويأتي كبار موظفي الدولة اللحدارية، بتراكش الذهب، والفضة، ودبابيس البلور، ويقف بمحاذاة رأسه أربعة من الأمراء، في أيديهم حلية من فضة يطردون بها الذباب عن السلطان. ويحضر مترجم الملك، ومعه نساؤه الأربع، وجواريه المائة إلى مكان الاحتفال، مرتدين ملابس فاخرة، ومتزينين بالذهب، ويعزف المترجم على آلة مصنوعة من نبات القصبة (يطلق عليها اليوم الناي). كما يحضر الاحتفال الشعراء الذين يعزفون بالجلاد، مرتدين أزياء مضحكة[1].

وذكر ابن بطوطة أن هذه الأفعال كانت قبل مجيء الإسلام، واستمرت بعده[2].

2 - **طبقة الفرسان**، وتتألف من الفرسان والمنضمين إليها؛ نتيجة لما يبديه الفارس من مهارة في ركوب الخيل، ومقارعة الأعداء، وفروسيته تحدد نوع لباسه، فالفارس يرتدي أساور ذهبية، وإذا زادت شهرته وفاق أقرانه.. فإنه يلبس معها أطواقًا من ذهب، تميزه عن غيره من الفرسان، وكلما ازدادت فروسيته، ارتدى معها خلاخل ذهبية. وإذا أبدع أكثر في الفروسية، ألبسه الملك سراويل واسعة من فوق وضيقة عند الساقين[3]. ويبدو أن هذا الزي أخذه حكام

(1)- إلى يومنا هذا يوجد مضحك لعدد من حكام دول غرب أفريقيا مالي والنيجر والسنغال وغيرهم، حيث. يرتدي المضحك للسلطان لباس، يثير الانتباه، ويتكلم بعبارات تضحك الحاكم، ويبدو أن العادة امتداد لما كان في مالي.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق ص ص 686-687.

(3)-نفسه والصفحة.

مملكة مالي من قبائل صنهاجة، وفي مقدمتهم قبائل الطوارق ؛ ومن هنا ندرك أن هناك تأثيراً وتأثراً.

يمثل هذا التكريم للفارس ما يعرف عندنا اليوم بالأنواط، والنياشين، والأوسمة العسكرية، التي تمنح للجندي، والضابط، الذي ظهر منه عملٌ يميزه عن أقرانه.

3 - **الطبقة العامة** وتمثل أغلب المجتمع المالي وهي الطبقة العريضة من طبقات عامة الشعب، وتتميز عن الطبقتين السابقتين في طريقة عيشها وزيها، فهي ترتدي ملابس تشبه إلى حد كبير الزي العربي المغربي، والذي يتألف من عمائم، وجبات، ودراريع، بدون تخريج، وعادة ما تكون مصنوعة من القطن ولونها أبيض، ولهم مهارة في نسج الملابس التي تعرف عندهم بالكميصا.

4 - **طبقة العبيد** وهي الطبقة المسحوقة، التي تعمل دائمًا على التفاني في خدمة السادة والخضوع لهم.

وقبل أن نختم حديثنا عن البيئة الاجتماعية لمملكة مالي الإسلامية، علينا أن نتحدث عن دور الإسلام في المجتمع المالي.

لقد جاء الإسلام إلى الزنوج، وهم سادة في بلدانهم، يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والقوة، ويمارسون حكم بلادهم، وينظمون شؤونهم الخاصة في مجتمعاتهم، فلم يكن لدعاة الإسلام من العرب أو غيرهم من ناشريه أدنى قسط من السيطرة، وإن كان نفوذهم الروحي عظيماً، لكنه مقبول عن رضىً وقناعة تامة.

وكان الدعاة من المسلمين يمتزجون بالزنوج عن طريق المصاهرة، ويذوبون في المجتمع الأفريقي دون قهر؛ ولذلك تقبل السود الإسلام، وعملوا على نشره بين مواطنيهم، ولا أدل على ذلك من دعاة الماندنجو الذين أثبتوا في جميع بلاد غربي إفريقية تحمسهم لنشر الإسلام، وكذلك قبائل الفلان الذين حملوا على عاتقهم لواء الدعوة، ولذلك لم يؤد الإسلام إلى تحطيم النظم المحلية القائمة، بقدر

ماهذّب منها وفق شريعته السمحة بل المؤمنون الأفارقة أنفسهم، اختاروا الصورة الجديدة للحياة.

ولعل من أبرز خصائص وعوامل انتشار الإسلام في مالي، وحسن قبوله، أن البلاد التي قدم منها -الجزيرة العربية ومصر والمغرب- لم يكن لها أي نوع من الإشراف أو السيادة، أو الحماية، فالإسلام في مالي، ترك الوطنيين سادة على أنفسهم وعلى بلادهم، على عكس مما فعلته المسيحية. يقول بليدن [1] عن الديانة المسيحية.

لقد جاءت المسيحية إلى الإفريقي باعتباره عبدا، أو على الأقل بوصفه خاضعاً محكوماً، فتعلم الزنجي وبنوه من بعده بجانب تعاليم المسيحية أنه جنس منحط، عديم الأهلية والكفاءة، وأنه دون معلميه وحكامه البيض[2].

بينما يشعر الإفريقي المسلم، أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه، وعن مجتمعه، فقد جعل الاستعمار الأوربي الأفريقي حائراً، فلا هو قريب منه، ولاهو مقبول عنده لكي ينتسب إلى الحضارة الأوربية، فحرمه الأوربي من الثقافة المعقولة، والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسيحي الأبيض، وذلك على عكس الإسلام الذي رسخ منذ فجر بزوغه، في أفريقيا المساواة التامة وكفل للمسلمين جميع حقوقهم، دون النظر إلى لون، أو جنس. وبسبب هذه العوامل مجتمعة كان الإسلام أسبق من المسيحية في الوصول إلى غربي أفريقية الرغم من أن ظهور الإسلام جاء بعد ظهور المسيحية بحوالي خمسة قرون. ومن

---

(1)- الدكتور ولموت بليدن E. W Blyden ليبيري، تعرض للاضطهاد في الولايات المتحدة في القرن الماضي بسبب لونه، فلم يستطع أن يكمل دراسته، ونصح بالذهاب إلى ليبيريا والتحق بإحدى مدارس الكنيسة، وتخرج منها. تولى عدة مناصب ثقافية وسياسية، وقام برحلة إلى الشرق لدراسة اللغة العربية وجمع المخطوطات العربية عام 1869م، زار في رحلته مصر وسوريا، وكتب عدة مقالات عن المسيحية ونشرها في كتاب طبع عام 1888م بلندن.

(2) : Blyden, E. W. : Christianity, Islam & The Negro Race (London 1881) P - 12-13

العجيب أن عدد المسلمين لم يزد بسرعة كبيرة في بلاد غرب إفريقيا، إلا زمن المستعمرين على الرغم من نشاط البعثات التبشيرية المسيحية التي يساندها المستعمرون في تحقيق أغراضها[1].

انهيـار مـالي :

واستخلاصاً للأحداث عن مملكة مالي الإسلامية، فقد أورد عدد من الباحثين أسباباً قربت نهايتها من مسرح الأحداث، وقد حاولت ترتيبها حسب استقراء الأحداث لها، وهي :

1 - سيطرة الطوارق على مدينة تنبكت وجني وولاته.

2 - خروج بعض المناجم الهامة، والتي تمثل ثقلاً اقتصادياً مهماً في البلاد، من أيدي الحكومة، مثل منجم النحاس في تكدا وغيره؛ الأمر الذي جعل البلاد في حالة اقتصادية متدهورة.

3 - التنازع على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة قرّب زمن زوال مالي، وهذا الصراع كلف خزينة الدولة أكثر من الأموال، التي كان يجب عليها أن تنفقها في شؤون أخرى.

4 - هجوم قبائل الموسي الوثنية من الجنوب أدى إلى تدهورها.

5 - انغماس حكامها في الترف والشهوات؛ الأمر الذي شغلهم عن الاهتمام بشؤون المملكة، بأن استقل عدد من الأقاليم عنها وبذلك تقلصت حدودها، وتوالت عليها عوامل الضعف حتى سقطت.

6 - هجوم قبائل الولوف، والتوكولور، من الجنوب الغربي، وتسديد الضربات المؤلمة لها أدى إلى التعجيل بموعد سقوطها.

7 - اهتمام حكام مالي في القرن الثامن الهجري الخامس عشر الميلادي بالمناطق الغربية على الأطلسي، فهذا العامل له مغزاه البعيد، على أنهم يريدون

(1)- للمزيد، انظر الهادي المبروك الدالي، وعمار هلال، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا 1850-1914، المرجع السابق ص 82.

من وراء ذلك تقوية علاقاتهم مع البرتغال، الذي بدأت له موطن قدم في المنطقة، على هيئة مراكز لتجارة العبيد على شواطئ أفريقيا الغربية ·

8 - الصراع الذي شكلته سنغاي وكانم، من جهة الشرق، على مملكة مالي الإسلامية، عمل على إنهاك قوتها، وبدأ يظهر نجم سنغاي إلى الوجود، في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، متمثلة في شخصية سني علي الذي جاء إلى سدة الحكم عام 889هـ/ 1464م ·

كل هذه الأمور مجتمعة أثرت بشكل أو بآخر على مملكة مالي الإسلامية وعجلت بسقوطها، وقيام قوة جديدة، أخذت مكانها في منطقة السودان الغربي، والتي سنتعرض لها في الفصل القادم كقوة سياسية في المنطقة ·